

عبد اللطيف الأرنؤوط

خالد مخمسين

تأملات في إبداعاته الشعرية
والأدبية المنشورة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى : ٢٠٠٨

التنضيد والإخراج : أماني محمد البلعة

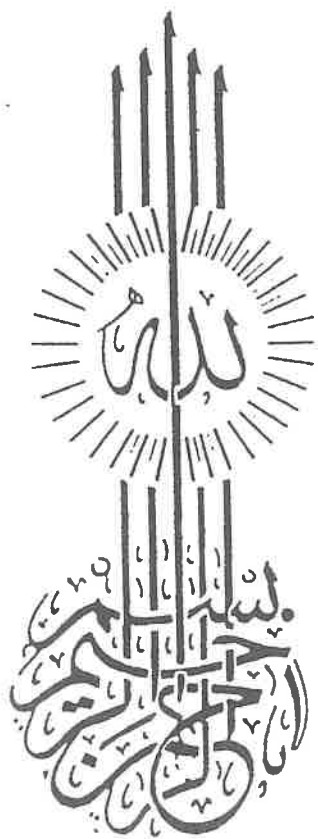
عنوان المؤلف

دمشق - مشروع دمر

ص.ب : ٦٠٠٥٤

هاتف : ٣١١٦٣٧١

فاكس : ٣١٢٣٧٧٨





الشاعر: خالد الخنين

في البدء كلمة

خالد محمد الحنين شاعراً وباحثاً

عندما أستعرض إبداع الصديق الأستاذ خالد الحنين الأدبية ترسم في مخيلتي صورة جلية لماضي السفارات الأدبية في الجاهلية، أو وفود العرب إلى الأمم الأخرى، فمن تقاليد هذه السفارات أن الملوك والقبائل العربية في العصر الجاهلي، كانوا ينتخبون أفضل رجالاتهم علماء وفصاحة، ويوجهونهم إلى بلاطات الأمم . ليفاخروها بمناقب قومهم العرب، ويشيدون بفضلهم في المحافل والمجالس، فشكّلت هذه السفارات وما قيل فيها من خطب باباً كاملاً من

كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، وكان يخالجي بعض الشك بوضع هذه الأخبار، حتى شهدت بنفسي صورة تطبيقية لهذا اللون من السفارة، مثلها صديقي الأديب "خالد الحنين" حين أوفدته المملكة العربية السعودية ملحقاً ثقافياً إلى "دمشق". فكان بمفرده يمثل صورة عن تلك الوفود وقد تعزّز اقتناعي بأن سفارة الأدب، يمكن أن يكون لها من التأثير ما تعجز السفارة السياسية في تقلبات أحوالها من تحقيقه، ويبدو أن القائمين على الأمر في المملكة، عجموا كنانتهم فوجدوا في شخص "الحنين" من همّة الشباب وحيويته، وإخلاصه لبلده، ما يؤهله لحمل هذه الرسالة الخطيرة، فكان خير من ندب لها، إذ لم يتقيّد بما يقتضيه عمل الملحق الثقافي عادة من روتين أو بيروقراطية. مكتبية ضمن حدود مهمته بأن يكون ناقلاً ومبلغاً يتحدث عن الثقافة ونشاطاتها في البلد الذي أوفد إليه، بقدر ما فهم أن مهمته ملحقاً ثقافياً أن يندمج ومؤسسته في إطا العمل الثقافي فإذا الملحقية التي يشرف عليها تغدو أشبه بخلية نحل، فلا

يتوقف عن مدّ جسور التواصل والالتحام بالأدباء والشعراء
والثقفيين السوريين، ولا ينقطعون عن زيارة الملحقية وقد
أُمسّت داراً لهم تحتضن فكرهم، ولا يكفّ بدوره شاعراً
وباحثاً ومحاضراً وناشطاً في كل مناسبة، ومعرفاً بالأدب
السعودي في أنحاء المملكة، ماضيه وحاضره، ومشجعاً لهم
ليطلعوا على الإصدارات الجديدة التي غالباً ما كان يعترض
وصولها إليهم عوائق الروتين والحواجر الإدارية، وتمتد
فعالياته لتجاوز مدينة "دمشق" إلى المدن الأخرى، وقد
شهدت مراكزها الثقافية شاعراً ومشاركاً في الندوات
الثقافية، فكان خير رسول ثقافي لبلده .

وقد جدّد في نفوسهم مارثت حباله من الروابط الثقافية
والتراثية التي تراخت بعد هجمة التيارات الثقافية الوافدة،
والتي كان من مساعيها أن تقطع بين الجذور والفروع،
وتميت ذلك النسغ الذي تغذت منه شجرة الشعر العربي منذ
امرئ القيس إلى يومنا ..

أعرف عدداً من الملحقين الثقافيين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون لهم دور المراقب وساعي البريد، واكتفوا بكتابة التقارير الثقافية الجافة التي تقبع في أدراج المؤسسات دون أن يكون لها أي تأثير في دفع مسيرة الحركة الثقافية بين بلدي السفير والسفارة، والمميزون وحدهم هم القادرون على مدّ هذه الجسور الثقافية، وتوحيد الجهود لتعاون ثقافي مشمر وبنّاء .

ونلاحظ أن ما سهّل مهمة الشاعر "الخنين" في دمشق، إيمانه الراسخ بثقافة أمته العربية وتراثها الشعري الحافل بالقيم العربية الأصيلة، يتسلح لها ناقداً ودارساً لتراث "نجد" الشعري، وصورة "نجد" في الشعر العربي، وهي صورة ناصعة تجسّدت من خلالها قيم الصحراء من حب وإيثار وشهامة ونجدة وكرم وتعلق بالأرض ووفاء لها، ونبل في التعاون الإنساني، يبرز الإنسانية في أجلى معانيها .

لقد أقبل "الخنين" على دراسة هذا التراث على ضخامته وامتداد صورة "نجد" عبر الزمان والمكان، فغدت ملهمة

الشعراء منذ الجاهلية إلى يومنا، فكان اتساعها يتجاوز طاقة طالب جامعي يؤثر اختيار جوانب محددة منها، لكنه حمّل نفسه جهد الباحث الصابر، فعكف على هذه الصورة التي تتجلى في الشعر العربي التراثي منذ الجاهلية، وتشكل نصوصها ثلاثة أرباع الشعر العربي، وكان عليه أن يجمع النصوص الشعرية التي تستلهم الصورة النجدية، ويوثّقها من مصادرها ومظاهرها المتشعبة، ويعارض بين الروايات مستعيناً بالتقنيات الحديثة، فإذا توافرت له مادة هذه الصورة في الشعر، عكف على تجلية جوانبها المختلفة، وما يتصل منها بوصف "نجد" ومعالمه الطبيعية من نبات وماء ومواقع ومناخ وجمال طبيعي، وما وفّرت طبيعتها من أنماط حياة رعوية ومستقرّة، فرضت خصائص اتسم بها الإنسان النجدي العاشق للطبيعة، والمنفتح على الآخر حباً وعطاءً ودماثة خلق، وحسن معشر، وكرم وفادة، وبعد عن الأثرة، وبساطة عيش، وقد استوفى "الحنين" هذه القيم في الشعر النجدي، فرافق الشعراء في رحلاتهم الشعرية مشيعين

الظعائن بدموع المفارق الوامق، ووقف معهم على ديار
الأحبة، يتنشق عبيرهم من شذا الشيح والغيصوم والعرار،
ولعله وهو الشاعر النجدي، تلفت مشيئاً حتى تعب .
بل لعله حين غابت عنه الرسوم، راح يبصرها بقلبه لا
بعينه :

وتلفت عيني فمد خفيت

عني الرسوم تلفت القلب

بل لعله مرّ بما مروا به من تجارب الحبّ العفيف، فراح
يخطّ على الرمل معلناً عن خيبة أملٍ في اللقاء بعد الرحيل :
غداة أخط الخط في الترب مولعاً
بكفيّ والغربان حولي وقّع

وقد رحلت الأحبة برحيل "عشيات الحمى" فكيف لا
يتمثل ابن نجد التجربة الإنسانية النجدية وقيمها، إذا كان
الشعراء من مختلف الأمصار اتخذوا من هذه التجربة تقليداً
يترسمون خطاه عبر العصور ..؟

صديقي "خالد الخنين" شاعر نجدي وإنسان نجدي قبل أن يكون شاعراً، فهو يمتحّ من نبع إنساني متدفق، يفيض على ما حوله الحب الذي يحمله من تراب وطنه، فإذا دواوينه الشعرية تحمل عناوينها حب الوطن والإنسان، عشقه الأول جسده في أول ديوان "الرياض.. العشق الأول" وهو عشق بعيد الغور تمتد جذوره إلى ألفي عام من الانتماء لأرض الجزيرة العربية، وتتحدد هويته الإنسانية بالقيم التي حملها وطنه عبر تاريخه الثقافي المشرق، وعقيدته الإسلامية التي جاءت لتتم بها مكارم الأخلاق .

لم يكن هوية هذا الوطن وفقاً على أبنائه، بل فاضت عبر الزمان والمكان على كل عربي ومسلم . وأين استقرّ ؟ فهو منتمٍ لهذا الوطن لأن روحه تشكلت من شياث هذا الإرث الروحي والحضاري والديني والثقافي ..

في ديوانه الأول، يسترجع الشاعر "الخين" تجربة التغرّب ومعاناتها، فهو راحل عن الوطن والأحبة فيه في موقف

معارض لشعر الرحيل في التراث، لكن النتيجة واحدة، ثمة
قلب يحنّ إلى الوطن ومَنْ فيه، سواءً رحل صاحبه أم ارتحل
الأحبة عنه، لكن تغرّب الشاعر عن المكان، عن الوطن، يبدو
أشدّ قسوة من وداع الراحلين، فالمعاناة مضاعفة :

كم أطفأتني غربة
فأقول : آخر غربة .. هذا أنا
آتٍ .. وتحملني البيارق
والأناشيد التي
قد أشعلتني بالحماس المشتهى
يا أجمل الرايات
يا وجه الرياض الأسر .. !

* *

لم يكن اغتراب الشاعر عن ضيق أفق، فقد رأى في وجه
كثير من المدن العربية، وما يقربّه من وجه الرياض الأسر،
فهو يخصّها بأكثر من قصيدة، ويحسّ بالانتماء إليها إحساسه
بالانتماء إلى وطنه . و هي مشاركة وجدانية عفوية وطبيعية

قربته كثيراً من أبناء هذه العواصم الذين يشاركونه الحنين إلى
جذورهم البعيدة في الجزيرة العربية .

لم يصدر الشاعر في شعره عن موقف رافض لتغيير بنية
الشعر الموزون، إذا كان في هذا التغيير ما يجدد روح الشعر
ويحرره، فنظم قصائده بأسلوب شعر التفعيلة مع الحفاظ على
سمات الشعر التقليدي وما اتسم به من التكثيف والتعقيد
والغموض، واحتفظ بما يتسم به الشعر التراثي من لمح
وتصوير دون أن يستسلم للإيهام والتعمية، وبذلك يظل
ارتباطه بالشعر القديم موصول الحلقات لا يقطعه تجديد
مستعار، يخرج عن الذائقة الشعرية السليمة .

* *

في ديوانه الثاني "عشيات الحمى" نزعة غنائية اسرة،
فرضتها تجليات الحنين إلى الوطن وذاكراته وأحلامه،
أسلمت الشاعر إلى لون من الرومانسية، فتغدو صورة الوطن
كما هو لدى المهجريين لوناً من "اليوتوبيا"، وإذا كان
المهاجر تقيده أحواله من الرجوع إلى الوطن، فإن العمل

الدبلوماسي يمنح ممارسه لوناً من الهجرة القسرية، والتنقل بين البلدان، لكن ما يتوافر في هذه المدن من ألوان المدنية لا يمكن أن يغيب وجه الصحراء، وبساطة الحياة فيها، وسعادة التواصل مع الأهل والعشير .

وهكذا تغدو صورة الصحراء معادلاً لصورة جبل لبنان لدى المهاجرين إلى الأمريكيتين، لكنها تظل أقل حرقاً في النفس لدى الشاعر لأن عمله يفرض عليه عدم الانطواء على ذاته واجترار ذكريات الماضي، إن هي إلا خطرات يفيض بها القلب حين يعود إلى ذاته :

وأحبّ هذي البيد إذ تمشي

على رحب الجهات

فلا حدود لخطوها

كان الطريق المنتهى

هو بعض ما ترك السراب

من أمنيات فوق ذاكرة الطلول

* *

فالشاعر " الحنين " ليس غريباً، هو بين أهله وعشيرته
ووطنه، يفيض على ما حوله من تراثه ومعتقده الديني، فلا
حدود لثورة الصحراء الروحية، ولا نهاية لعطائها الخصيب،
فلا يبقى من قسوة هذه الغربة إلا ما يفرضه فراق الأسرة
والأهل وبعض صور الحياة الهائلة في البادية، وجمال وجهها
الآسر :

كان الزمان بسيطاً طيباً عطراً
وفي المساء يطيب الأنس والسمر
يوم القصائد تروى في محافلنا
كأنها من كروم الحقل تعنصر
وأن يغرد طير في مرابعه
فيطرب النجم في علياه والقمر
وأن يعيش جميع الناس في دعة
والأرض يملؤها التحنان والبشر
أبي وأمي حنان لا حدود له
على الصغار وقلب دافئ عطر
* *

وفي ديوان "حذاء الصحراء" قصائد غنائية تدور في فلك عالمه الشعري الأثير، وهو حياة البادية، وتأملات الشاعر الذي خرج منها إلى عالم أوسع يسوده القلق والاضطراب، ويجبّط لديه كل أحلامه في حياة كريمة للإنسان، وقد قويت نزعة الرفض لديه على امتداد العمر، ومرارة التجارب والأحداث، فتحوّل تلميحه إلى شكوى سافرة .

وفي ديوانه "شظايا العمر" نلاحظ أن قلقه لم يفقده إيمانه برسائلته الشعرية والإنسانية، على الرغم من حزنه المقنّع والسافر في كثير من قصائد الديوان .

ويراجع الشاعر "الحنين" كتاب حياته بعين الرضا، ولعلنا نحن أصدقائه ومحبيه وعارفه أكثر رضا عن حياته في هذه المراجعة . فقد قدّم الشاعر والباحث "خالد الحنين" في سنوات معدودة من الجهد والإبداع ما لم يستطع مبدع أن يقدمه في عقود .. ووقف حياته لخدمة الكلمة التي قد يكون لها من الأثر والتأثير ما يبدّل وجه عالمنا المضطرب، وما

أحسب لو أنه أصغى لكلمات الشعراء سيظل بهذه القتامة
والتأزم والاكفهرار، إذ لا بدّ أن تشرق شمس الشعراء عليه،
فتحيله نهاراً للحرية والسعادة والحب .

وقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادي

الحنين إلى
الرياض العشق الأول

الحنين إلى "الرياض .. العشق الأول"

يحاول الشاعر السعودي "خالد بن محمد الحنين" في مجموعته الشعرية "الرياض .. العشق الأول" أن يُعيد إلى الأذهان ما غبر من صور الشعر العربي في الحنين إلى الأوطان والأهل والأحبة، وهو باب متميز في الشعر العربي، وغني بالمشاعر، يحفل بالصدق والعفوية، ذلك أن حنين الشاعر العربي إلى وطنه في البوادي على ما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة يثبت أن حب الوطن عالق في القلوب، لأن الإنسان يألف بيئته التي بها نشأ، ويتشرب عاداتها وتقاليدها،

وتسعد نفسه بمخالطة من يعاشرهم من أبنائها، ومع أن
الهجرة البعيدة عن الأوطان كانت محدودة في القدم فما
كانت رحلة البدوي سوى تحول إلى مراعٍ دانية كلياً للكلاء
والمرعى إلا أن ما فطر عليه ابن الجزيرة العربية من صدق
واخلاص كان يدفعه إلى التعلق بما ألف، حتى ليبدو وكأن
فراق الوطن علة في قلب المفارق لا دواء لها، وفي هذا المعنى
يقول الشاعر العربي :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا

على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع

إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

ولا يقل تعلق "ابن الدمينه" بدياره ووطنه عن تعلق ذلك

الشاعر، فهو يحن إلى الديار والأهل والأحبة :

حننت إلى رياء ونفسك باعدت

مزارك عن رياء وشعباكما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعاً

و تجزع أن داعي الصبابة أو سمعا

قفا ودعا نجدا و مَنْ حلّ بالحمى

وقلّ لنجد عندنا أن يودعا

لعمرك تلك الأرض ما أطيب الربا

وما أحسن المصطاف والمتربعا

ثم جاء حين من الدهر ففرت فيه تلك العاطفة، فقد ألف

العربي بعد موجة الفتوح الاستقرار في غير وطنه، واتخاذ

البلدان الأخرى مقراً له وسكناً، لكنه لم ينسَ جذوره في

الجزيرة العربية وبلاد الشام، بل ظلّ يعبر عن شوقه إلى

مرابعه الأولى . ولو كان أميراً سيداً مثل

"عبد الرحمن الداخل" الذي رأى في النحلة المخلوبة من بلده

صورة وطنه البعيد فصّور حنينه إليه، كما عبرت

"ميسون بنت بحدل" عن حنينها إلى وطنها في بادية الشام

بعد أن تزوجها معاوية وأسكنها قصور بني أمية الضخمة

لكنها كانت ترى في حياة البادية ما هو أفضل من القصور..

وفي عصرنا الحاضر اتسمت الهجرة عن الأوطان بالبعدين
الزماني والمكاني، فلم تعد هجرة محدودة بل أمست هجرة
طويلة الأمد، بعيدة المسافة، ولذلك احتل الحنين في شعر
شعراء المهجر تلك المكانة البارزة، كما كانت أحياناً هجرة
قسرية فرضها الاحتلال كما في الأدب الفلسطيني، فعبّر
الشعراء عن حرمانهم صورة الوطن الأم بشعر رقيق يعكس
ألمهم وتوقعهم إلى العودة، لكن صورة مدينة "الرياض"
لم تبرز خاطره فهي مدرج صباه، وموطن أهله وأحبته،
وهي رمز انتمائه الوطني، فليس غريباً أن يخصصها بقصائد من
الحنين يضيف إليها ما يتصل بهذا الحنين من ذكريات الأهل
والأحبة أو ما يثير لواعجه كمخاطبة القادمين منها إلى
دمشق أو الغادين إلى "الرياض" يحملهم رسائل وجده
واشتياقه أو يخاطبها خطاب الحب للمحبوب :

مدّي جناحك تيهاً وانتشي طرباً
منّ قال إنك أخت المجد ما كذبا

ما مر طيفك في الأعماق يشعلها
إلا وحنّ دمي بالشوق و اصطخبها
وإن نأيت ولو حيناً على مضض
ضجّ الحنين وثارت مقلتي غضبا
يحبي صباي عبير منك منسكب
طاب العبير من العينين ما انسكبا
أنت الرياض جناح مدّ هامته
إلى الذرى و جناح عانق الشهباء
وتذكرني الصورة الأخيرة في قصيدة مطلعها :
من قاسيون أطل يا بلدي
فأرى دمشق تعانق الشهباء

إلا أن الشاعر "الحنين" يطور الصورة ويُغنيها فيجعل
للرياض جناحين أحدهما لاصق بالثرى وآخر يتطلع إلى
النجوم، وهو مولع بمثل ذلك التضمين إلا أن له شخصيته
التي تبرز من نسج روحه، ويتحول الشاعر إلى وطنه المملكة

العربية السعودية فيمجد أرضه وشعبه وتاريخه في قصيدة
يقول :

أرض القدا سات يأم القرى وبها
منابع النور عمّ الكون و الأفقا
ديار نجد و فيها الصيد من مضر
و من ربيعة ذلت الطود قد سمقا
كم في ربوعك للأجيال من حدث
وكم زرعت على هام الدنا ألقا
مهد الخزامى ونبت الشيخ ما نسلت
إلا الفوارس من قحطان والخلقا
المطعمون على الأيام مهجتهم
والمسبتون من الآداب ما عتقا
والحاملون شمس العلم ساطعة
والحاملون سيوف العزّ يوم لقا

* *

ونلمس في الأبيات عزة وطنية وقومية دينية، وفخراً
صادقاً بما هو جدير بأن يفخر الشاعر به، وهو في هذه
(الحجازيات) الجدية يرق شجىً وولوعاً بوطنه حتى ليغدو
الحنين إليه هاجسه الدائم :

أدر فؤادك نحو السربع و اعتذر
يا من سلوت و ما تسلى على سفر
أدر فؤادك ما شفّ الفؤاد سوى
حلم إليك ندي رائع عطر
هي المربع ملء العين حاضرة
ملء الضلوع و ملء السمع والبصر
مرت على شفة القيثارة أغنية
كما يمر صدى بوحى على الوتر
تنأى وظلك باق في مخيلتي
وما تغيب رؤى هامت بها فكري
غنيت للنخل في الواحات باسقة
صوب السماء على تل و منحدر

وللشاعر عذره في هذا الحنين على قربه من نجد ووجوده
بين أهله في الشام، فقد خلف في الوطن أحبه وأهلاً، وهو
يمر بحسان دمشق علّها أن تسليه عن الحبيب الذي فارقه في
ديار أهله فيقول:

عذب المناهل من نجد مفاته

سبحان من خلق الإبداع أو وهبا

وحين يقتلني عشقاً إليك ظمأ

أهفو إليه ندى في الشجر منسكبا

تركت ذاكرة الأيام تكتبني

ذكرى لديك فهل ضاع الذي كتبنا

طافت بي الآه من حزن تسائلني

ماللحبيب نأى في الدهر واغتربا

ياشام يا قمر العشاق يا حلماً

من جنة الخلد أرجاء و طيب ربي

أمرّ بالخور .. ما هذا الجمال وكم

يثير بي بردى من صبوة عجبا

إذا مشين يضج الدرب منتشياً
و إن خطرنا أمامي خلتهن ظبا
وأنت يا قمري في البال أنت هنا
كالجلم مبتعداً عني و مقتربا

* *

وفي مدينة (الرياض) خلف الشاعر ذكريات موجعة لا
تُنسى، ففيها دفن طفله التي فقدوها إثر حادث، وفيها خلف
ولده "عبد العزيز" الذي هو عنده ريحانة العين وحشاشة
الروح، فهو يشاق إليه ويصف حركاته ولعبه :

أرى الليالي بأرض الشام موحشة
مذْ غاب عن عقب الرؤيا محيّا
أشتاق بسمته السمراء مشرقة
كما الشموس و وجهها لست أنساه
سل العرار كم أشتاق العرار له
و بلبل الدوح كم بالوجد ناجاه

في كل زاوية في الدار المحه
في كل ركن من الأركان ألقاه
وهكذا يصدق على شاعرنا قول سلفه من الشعراء :
وما حب الديار شغفن قلبي
و لكن حب من سكن الديارا
فهو لا ينسى صورة والدته تلك المرأة الصابرة التي ربته
وأخاه بعد وفاة والده وتطل عليه صورتهما في غربته بدمشق
فيواجهها :

و جه يفيض بنور الله من ألقى
و مقلة ملأت بالحب دنيانا
حملت همي مذ كان الفؤاد صبا
فما شكوت من الأعباء ما كانا
آمنت أنك أغلى ما يجود به
فيض الإله إذا ما جاد إحساناً

* *

والشاعر " الحنين " مجدّد في صورته، وقد يعتمد قصيدة
التفعيلة، وبخاصة في مواقف الغزل، وغزله رقيق صادق :

آتي إليك

ومقلّتي يمامتان

وأقول يا قمرّي أحبك مثلما

عشب البراري حين يحضنه الندى

بيكي، يمد إلى الغمام بلهفة الظامي يدا

* *

ولا يتجاهل الشاعر أنه يعيش في بلده دمشق، فيخصها
بأكثر من قصيدة يبرز فيها سحر طبيعتها وشيم أهلها وجمال
حسانها وعراقة تاريخها :

بنت الربى الخضر، بنت الشام ملهمتي

في قمة المجد كنت السيف والقضبا

دمشق يا جنة الدنيا و بهجتها

و كوثرًا من رحيق الماء ما نضبا

منارة العلم والآداب كم صدحت

فيك القوافي فما نالت بك الأربا
من عهد جلق لا زالت مآثرها
تاجا يطرز هام الكون والقبيا
الأبجدية في أرجائها كتبت
لله من علم الإنسان ما كتبا ؟
بني أمية في سمع الزمان لهم
ما طوق الشمس أو ما طوق الحقبا
تلك الفتوحات في شام وأندلس
حسامها ما نبا في وجه من ضربا

* *

وأسلوب الشاعر في قصائده متين النسيج، قوي الإيقاع،
تغمره العاطفة الصادقة فهو يتذكر في ربوع دمشق أصدقاءه
وأحبته وليالي أنسه فيقول :
ولي أحبة عمرها هنا تركوا
في الذكريات بروحي أطيب الأثر

و العاشقون بظل الليل موعدهم
ما بين مشتعل وجداً و مستعر
في رعشة النبض ما غابوا وما حضروا
و أينما كنتَ في حلي وفي سفري
بين الشام و نجد ذكريات هوى
هي الطيوب على ثغر الندى العطر

* *

وفي دمشق له ذكريات عذبة ومرة :
كانت كوهم الحلم فينا
أو كهمس قد غير
لكنَّ في أعماقنا
ما زال شيء منتظر
أشياءُنا تبكي علينا
آه من شيء كسر

* *

ويصوغ الشاعر "خالد الخنين" تجربة حبه في دمشق مبرزاً
حنينه إلى الحبيبة التي فارقت فكانت أيامها كالحلم العابر :
ما كان أجمل ما عشناه يا حلماً
و أجمل الحلم نبض فيه ذكرانا
يمضي بنا البعد والأيام راحلة
و الآه تورق في الأعماق أحزانا
أمرٌ بالشام في أنحاء غوطتها
واسأل الدوح أشجاراً وأغصاناً
أين الحبيبة أين الذكريات وقد
باتت تؤرقني قلباً ووجداناً
* *

وهو في غزله رقيق، لكنه موزع القلب على دروب
الحب بين وطنه وبلاد الشام بل إن الجمال ليستثيره في كل
مكان من عواصم العالم كفيينا وباريس، والمرأة ملهمته،
سواء أكانت تلك البدوية في صحراء نجد أو فاتنة "الدونا"
في النمسا فمقابل صورة الغدير و الحبيبة في بلده "نجد" الذي

يذكرنا بغدير "امرئ القيس" ولكنه لدى الشاعر غدير من
ذكرات الحب والحنين :

ماذا أحدث عنك

يا قمر البراري

يا هوى في البال

يا شوق التراب لقطرة

تروي بها الظمأ المزعج في الهجير

قمر ينام على شبابيكي

وحلم في الوسائد والحريـر

ويد تداعبني

وحضن دافئ حلو أثير

وعذوبة أشهى من الريحان .. أشهى

من وسائد راح يغزلها السحاب لنا

تنام على ضفاف فوقها من ييلسان أو حريـر

* *

مقابل هذه الصورة الرائعة للوطن وطبيعته والأحبة فيه،
تراه يصف الطبيعة الأوربية الغائمة، وتطالعنا صورة المحبوبة
في إطارها في قصيدة " فاتنة الدونا " :

هويتك مذكُ رأيتك تخطرنا

على (الجرينسينغ) وحدك تعبرنا

غماماً من ندى صيف شهى

يوزع أينما خطر الفتونا

على شيطان نهر الدونا تلهو

غواربه و ترتجل اللحونا

هي فينا عروس الكون عندي

وملهمتي من الدرر الثمينا

* *

وهكذا نجتاز مع الشاعر مراحل عمره طفولة وشباباً
واكتهالاً، ونقرأ معالمها مرسومة شعراً يتناوب فيه الفرح
والأسى ونزوات الشباب وحكمة التضوج حتى يتوقف بنا
عند آخر محطة من محطات عمره فيقول :

قطار العمر أنهكه النوى
أضناه في درب الهوى التعب
شكا بعد الرحيل صباه
هل كان الصبا وهما ؟
وما جدوى حياة كلها لعب ؟
وماذا خبأ الماضون للآتي ؟
وما أرويه عن ذاتي ؟
كأني موقد أحرقت في الأيام جمراتي
وما أبقيت في حزن الهشيم
غداة أمضي غير مأساتي

* *

فهو يدون في رماد ذكريات ربيعته ويغني ماضيه على
بوابة الريح، ويشكو حظه العاثر بسبب عذابه النفسي الذي
يسببه إخلاصه لرسالة الفن في حين يسعد الناس بجهلهم من
حوله، وهو يدين عصره، وقيم عصره التي أفقدت الإنسان
معنى الحياة، ويدعو إلى عالم يتسامى فيه الإنسان نحو الكمال

والمطلق (لأن أجمل ما نشتهي من الحب والأمنيات هو العلو
والتسامي) :

ترى هذا الذي نحياه
في عصر الردى
هل يكون نهاية اليأس ؟
نتوق إلى غد أحلى ...
إلى أعلى .. وأجمل ما اشتهيناه .. هو الأعلى ..

* *

بهذه الأبيات يختم الشاعر مجموعته الشعرية الدافئة،
ويطوي بستان أشعاره، ليدفعنا إلى أن نكون أكثر إيماناً
بالحياة والمستقبل نسير في دروبهما ورائدنا الحب والتسامي
فيهما يحقق الإنسان إنسانيته عن مبادل الحياة وأدائها .

حذاء الصحراء
عند الشاعر خالد الحنين

حذاء الصحراء

عند الشاعر خالد الحنين

"حذاء الصحراء" الديوان الثاني للشاعر "خالد بن محمد الحنين" فقد صدر ديوانه الأول "عام ١٩٩٥م، ومما يلفت النظر في هاتين المجموعتين الشعريتين، أن شعر "الحنين" يكاد يكون وقفاً على التغيي بمرايع وطنه - المملكة العربية السعودية - والحنين إلى الصحراء العربية، تلك الأرض التي قدمت للعالم أعظم رسالة سماوية هي الإسلام، وعلى رمالها وفوق نجادها درج أنبغ الشعراء، ولم يكن الأديب "خالد الحنين" بعيداً عن تراث العرب والإسلام الأدبي، فقد

عكف عليه عكوف الباحث المعجب، فأصدر دراسته المتميزة بعنوان : "نجد ومفاته الشعرية" جمع فيها صفوة ما نظمته القرائح عبر عصور الشعر العربي في التغني بمفاتيح هذا البلد الذي أصبح رمزاً للحنين إلى الأوطان، وذلك بسبب تعلق أبنائه والذين زاروه بسحر طبيعته وطيب عراره، وصفاء أهله وكرمهم، وقد ولد الشاعر "خالد الحنين" في مدينة "الدم" قاعدة الخرج في السعودية، وفيها تلقى تعليمه، ثم تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود، ويعمل الآن ملحقاتاً ثقافياً في سفارة المملكة العربية السعودية بدمشق، وهو شديد التعلق بموطنه ومسقط رأسه .

ومامن شك أن ثقافة الشاعر "الحنين" واهتمامه الأدبي بالتراث كان لهما أكبر الأثر في صقل موهبته الشعرية، وتوجهه إلى هذا اللون من الشعر الوطني الذي يدعو إلى ارتباط الإنسان بوطنه، في عصر شاع فيه الانسياح والتنقل والمجرة، وضعفت تلك الرابطة التي كانت تشد الإنسان إلى الوطن الأم، وساعد على إضعافها ذلك اللهاث الذي لا

يرتوي في طلب الرزق والسعي وراء المادة، ومن هنا تنبع أهمية ما قدمه الشاعر "الحنين" من دراسات أو شعر يحاول أن يجدد في نفس القارئ حبّ الوطن، ويعزز الانتماء إليه في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة التي تسعى جاهدة إلى تجريد الشخصية العربية الإسلامية من هويتها، وعلى قمة تلك المحاولات العولمة، وفرض ثقافات الأغيار ولغاتهم، واقتلاع جذور التراث إذ تعد اللغة والتراث العربي من أقوى المقومات التي تصونه وتحميه .

إن قصائد الشاعر "خالد الحنين"، ونَفْسُه الشعري تتسم بالسعة والشمول، فإذا عرفنا أن أكثر قصائد ديوان "حذاء الصحراء" تتناول موضوعاً واحداً هو حب الوطن والحنين إليه، باستثناء قصائد محدودة في الغزل ترتبط في معانيها بالموضوع الوطني، أدركنا مدى تشبّع الشاعر وقدرته على إبداع المعاني المتصلة بالوطن والحنين إليه، واتساع مخزونه الثقافي في هذا الموضوع لمعاشرته الطويلة للشعر العربي في الغرض ذاته، على أن ذلك لا يعني أن الشاعر "الحنين"

بعيد عما سبقه إليه الشعراء، وإنما يثمره ويضيف إليه من
ينبوع قريحته الصافية معاني مبتكرة في حب الوطن، تعدّ
إضافة هامة للتراث، ففي قصيدة بعنوان : " أغنيات لشمس
الوطن" يمهّد الشاعر لموضوعه، فيتحدث عن أبناء الصحراء
العربية الذين نشروا النور في أرجاء المعمورة، وكأنه يقدم
أشعاره إليهم :

الصابرون على البلايا مثلما
همّ تسامت فوق كل بلاء
هم من بني وطني أباة و الدّما
عربية و الفخر خفق لواء
كم أشرقت شمس المنى بعيونهم
وزها الصباح على دجى الظلماء
ثم يعرّج على الأرض التي أنبت هؤلاء العظماء، فيشير
إلى تاريخها المشرق وروعة ما قدمت للعالم من إنجاز :
ومضت تخطّ على المدى تاريخها
بنزيف حرف رائع وضّاء

واستكملتها في الزمان حضارةً
ستظل غير الدهر دون فناء
يا أمة أثني عليها الله من
عليائه دومي لخير ثناء
مضريةً والمجد بعض صفاتها
و الكبر زهو الراية الخضراء

وفي قصيدة " ربة الشعر " يستعيد الشاعر "الحنين" صورة
نجد والحنين إليه، على كثرة ما قيل في نجد، لكنه يجد مخرجاً
طريفاً إذ يجمع بين حنينه إلى المحبوبة التي تقطن نجداً وحنينه
إلى الأرض التي درج عليها، فيلتقي في موقف الحنين حبّ
الأرض وحب المرأة :

تُرى أتذكر نجداً ؟ أم سلوتَ على
بعد المسافة أحباباً وجيرانا
لكن ظلّك باق في العرّار و ما
ألفتُ بُعدك في الأيام إنساناً

هو الحنين لماضي كان يجمعنا

لم يبقَ منه هنا إلا بقايانا

وإذا كان الشاعر البدوي قد حنَّ إلى نجد على قرب
الارتحال وقصر المسافات، فإن حنين " الحنين " لا بد أن
يكون أشد لوعة بسبب بُعد المسافة، وشطّ المزار بعد تطور
وسائل المواصلات في عصرنا، فحنينه كحنين شعراء المهجر،
وروحه معلقة بآبنة الصحراء على ما تُقدم له الحياة الحضرية
اليوم من مفاتن المرأة في عالمنا المعاصر، إلا أنه ظل يجد في
البدويات ما وجدته المتنبي من سحرهن .. وكأنه يردد قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البداوة حسن غير مجلوب

ولعلّ الشاعر " الحنين " يشير إلى ذلك في قصيدته
" الدلم.. في مقلة الحلم المفتون " التي يحنّ فيها إلى بلدته
ومسقط رأسه " الدلم " فيدع في ابتكار صور الحنين لم يسبق
أحد إليها :

هناك في فلكٍ ناءٍ جناحها
سمراء فوق غمام الصبح تلقاها
أَلَقْتُ إلى ملكوت الله جبهتها
والكبر عبر ذُرّاً هذا المدى تاها
ياما تنائر عطر فوق مفرقها
فوق السفوح وياما المجد غنّاها
هذي هي الدُّلَمُ السماء أيُّ صَباً
هذا وأي جمال في صباياها
حور عبرن وسرب في حمام قطعاً
و الرائحات نجوم في ثناياها
ما مرّ فارس عشقٍ ها هنا أبداً
إلا تَمَنَّى على الأيام لقيها ..!
ثم يتحدث الشاعر عن أهلها ومعاناقهم التي لم تفقدهم
الأمل والإيمان بالله :
عاشوا على قسوة الأيام إذ كلحت
وإن تبسّم دهر سبّحوا الله

هَامُوا بِتَرْبَتِهَا عَشْقًا وَأَرْقَهُم

صَمَتَ الْحَنِينَ عَلَى أَرْقٍ تَغْشَاهَا

* *

ويتجاوز الشاعر "خالد الحنين" ديباجة القصيدة التقليدية،
فيعبّر عن مشاعره بأسلوب معاصر، يعتمد فيه شعر التفعيلة
بنجاح، كما في قصيدة " نداء الضفاف " حيث يمتزج الشوق
إلى الأهل بالحنين إلى الأرض والعادات والتقاليد .. فيقول :

هذا المساء

وقهوتي .. والزنجبيل

و جلسة عند الغدير

وتمتمات الساقية

هذا المساء

يمرّ .. يشعلني العرار

وخبز أُمي

والعصافير التي

عشقت بيوت الطين

والوجد الذي يغري
على أرق الهوى أحداقيه
هذا المساء ونخلة تبكي
فتوقظ في دمي أشواقه

* *

إنها لوحة كاملة مرسومة بالكلمات، تبرز فيها شتى
الألوان والعطور حتى لكأننا نشارك الشاعر في جلسته ولهفته
وحزنه، إذ يمشي إلى الوطن، وكلما اقتربت خطاه يجد
مسوَّغاً للعيش في أمل العودة يوماً إلى الربوع .

ويعدّ الشاعر في قصيدة جسوراً من الانتماء بين دمشق
والحجاز، ولا عجب في ذلك فأهل دمشق هم أهله،
والجذور واحدة، وهو يجد في إقامته بدمشق ما يخفف عنه
الغربة لأنهم أهله وعشيرته. فيقول في قصيدة
"المجد والحسام" .

هذي ربي نجد وتلك الشام
مجد تأخى في العلا وحسام

ودم يوحد بيننا .. ووشائج

تزهو، وما خفقت به الأعلام

وجبين عز لم يطأطئ هاهه

إلا لخالقه وليس يُضام

ويطمح إلى وحدة تجمع شمل الشتات فيقول :

ألق الجناح على الجناح فكلنا

في الركب من مضر ومن قحطان

كم أشتهي يوماً يجيء وأمتي

بالوحدة الكبرى غداً تلقاني

ومن المعاني المبتكرة في الجذر بالأرض التفاتة الشاعر إلى

رفض الهجرة حتى لذرات الرمال التي تعبت بها الرياح :

وكيف بي إذا رأيت ذرة

من التراب في الرياح

أن أصبح : يا رفيقة الرياح

عن بطاح مجدك العظيم لا تهاجري

هذا التراب رائع .. مقدس

هنا الوجوه حلوة
هنا النسيم حفنة من الشذا
وحفنة من الندى

تغوص في الضلوع حلوة العبير
أو تنام نشوةً على يدي

* *

ويقف الشاعر "خالد الخنين" على أطلال الأندلس مثلما
وقف قبله كثير من الشعراء العرب، فيؤلمه تناسي العرب،
ذلك الإنجاز العظيم الذي خلقه الأجداد، وهو يشهد لهم
بالعظمة .. فيقول بلسان غرناطة :

أنا غرناطة العرب
أنا التاريخ والرايات والأبجداد في الحقب
تناسى من أحبهم مجدي وتاريخي
تناسوا ماضياً ولّى
وهاهم كلما يوماً مررت بهم
بكوا حزناً

ورشوا فوق قبري دمعهم فُلاً
وغابوا بعدها زمناً

* *

ويحلم الشاعر "الحنين" مثلما تحلم الأندلس بفارس أسمر
أو طير عاشق أخضر يوقظ في غرناطة عرس فرحها، ويبعث
نخوة الأجداد في هذه الملايين التي نامت عن مجدها . ويتخذ
من النخلة في شموخها رمزاً للعزة العربية، ويحلم أن تسترد
جلالها، بعد أن زرعتها الآباء في كل صقع تعبيراً عن
حضارتهم الإنسانية :

فيا نخلة الروح هل من سبيل
إليك، وهل لحظة بيننا من وصال؟؟
أناديك ينهض حلم الأماي
بصدري وألقاك دفء الظلال
وأومن أنك ملء العيون سناها،
وأنت نبض الخيال
وأن اللقاء المحتم آتٍ

حفرناه وشمأً فما من محال

* *

وأمدّت مطالعات الشاعر، وتخصّصه في اللغة العربية بدفق شعري يجمع بين رصانة التعبير وانطلاقته، فطاعت له ملكة البيان دون عسر ولا تعقيد، ولا هبوط في الأسلوب أو إسفاف في المعنى، فإن القصيدة التقليدية تضمنت لونا من العفوية والوضوح، ولمّحت في ديباجته فحولة الشعر العربي القديم إلى جانب حداثة المعاني وغزارتها، وترابط أبيات القصيدة في وحدة معنوية على الرغم من الصعوبة التي عليها على الشاعر تقيده بموضوع واحد في أكثر قصائده، ويبدو أن صدق مشاعره قد سمح له بغزارة الأفكار دون أن يجترّها ولا أن يكررها، ففي كل قصيدة نسج جديد وأفكار تضاف إلى ما سلفها، ولا شك أن اتساع مفهوم الوطن لديه قد سمح له أن يجول جولات واسعة في الآمال والآلام التي تنبض في صدور أبناء أمته، فهو يكتب عن تحرير القدس ويرى أن الطريق إليه واحد :

طريق إلى القدس
يعبر فوق الجراح ويمشي
إليها .. على غضبة الكبرياء
طريق يغادر صمت الطلؤل
ويمضي على وثبة من إباء
ويرفع غصن السلام أبيتاً
على هامة المجد فوق العلاء

* *

و "خالد الخنين" في شعره الحديث أكثر تصيداً للصـور
وانطلاقاً في المجاز بسبب تحرره من أعباء القافية والتزام
تفعيلات البيت وشطريه، غير أن معينه هو الحب .. حب
الوطن، وحب الإنسان وهو نبعه الذي يغترق منه :

كتاب العمر يأسـماء
نـبع من حنان فاض
نهر من طيوب فاض بالغزل
وكل المشتهى قمر

يهلّ على سفوح
آه .. يا قمري
على شباكي الوردي
حين تنهض كي تغازل الستائر
حين تنهض مقلة
في هدأة السحر
لكي تلقاك في بوح الفم العطر
أحبّ .. كما الروابي
تنتشي بالماء والعشب
أحبّ وليس في الدنيا
سوى الحب

* *

أجل .. أحب الشاعر كل ما حوله، واتسع قلبه للدنيا
ومنّ فيها، لكن حب الوطن ومن فيه ملك عليه روحه،
فعلّمنا كيف نعشق الوطن، محارباً يدفع عن نفسه الأذى،
وأماً تحبز لأولادها الغائبين، وحبّية تترقب عودة المهاجر،

وذرات رمل تحكي تاريخ من عبروا فوقها، فهل نتعلم من
الشاعر "خالد الحنين" كيف نحب وطننا قبل أن يُسرق
منا...؟؟

عشيات الحمى
عند الشاعر خالد الخنين

عشيات الحمى

عند الشاعر خالد الخنين

"خالد الخنين" .. شاعر رقيق من السعودية، يطلع علينا من عباءة العصر الصاخب القلق الذي " لا يلوي فيه مقبل على مدبر" كما يقول الكاتب المنفلوطي، إذ ليس لدى القلب فرصة للتوقف أمام لمسة جمال عصرنا الذي جمّد مشاعرنا، وأثخن جلودنا حتى فقدنا الإحساس الرائع الذي كان لأجدادنا . فقد كانت حياتهم على بساطتها محطات عذبة للجمال، يتلمسونه في نظر مطمئن عبر منابت الشيح والعرار، أو جلسة صفاء في عشيات الحمى بين الأهل

والعشير، أو هبة شميم ووقفه عزّ من نفوس غنية لم يفسدها
الشحّ والأثرة.. تعطي بلا منّ، وتسعد بالعطاء أكثر مما
يهزّها الكسب والتكالب على مطامع الدنيا ولذائدها .

وليس غريباً أن يطّلع " الحنين " على تلك الحال من
الحنين الجارف إلى الماضي، والتمسك بقيمه الموروثة،
والاندماج في عالمه الإنساني الرائع، وهو سليل البوادي
وابن مضارب الآباء في الجزيرة العربية التي رفدت الأدب
العربي بأروع الشعاع وأنبل الأحاسيس، فكان لنا هذا
التراث الأدبي الغني الذي عكف عليه الشاعر قبل أن يقرزم
الشعر، فنهل منه درساً وحفظاً وتمثلاً حتى غدا جزءاً من
كيانه، جمع ما جادت به قرائح شعراء نجد الذين أهدوا
الأدب العربي أجمل ما سطرته الأقلام في الحنين إلى الوطن
والحبيب، وتوافر له من هذه المباشرة الطويلة إلمام بديباجة
الشعر القديم، وتمكّن لغوي يتميّز به، ويفرض علينا احترامه
وحرصه على سلامة التعبير اللغوي في عصر شاعت فيه
الרטانة وامتهان اللغة، فكان ديوانه الأول " الرياض ..

العشق الأول" و الثاني "حذاء الصحراء" ثم "عشيّات الحمى" الذي كان امتداداً لحركة بعث الشعر العربي وإحياء لأساليبه، والتي بدأت برواد النهضة من أمثال: سامي البارودي، خليل مطران، معروف الرصافي، أحمد شوقي، حافظ ابراهيم . ثم كاد الاحتكاك بالغرب أن يحرفها عن مسارها إلى دروب تائهة مظلمة، وعلى القارئ أن يتدرّع بالصبر ليعثر عليها من ركام غثّ تفرزه الصحف والمجلات كل يوم .

* *

لم تهَيّ معاشرة "خالد الخنين" التراث الشعري في الجزيرة العربية القدرة على الفصاحة فحسب، بل دمجته كلياً في عالم إبداعي ملتهب المشاعر، يمتزج فيه الحنين بلاحب، وتنطلق روحه إلى عوالم من الجمال الفطري، والارتباط بالأرض والأهل والهوية في إطار من الانسجام والرضا والتكيف مع المجتمع السعودي حامل قيم الأجداد ورسالتهم إلى عالمنا المرهق، فهو لا يرفض واقعه ولا يفرّ منه هارباً، بل على

نقيض ذلك نراه أكثر ما يكون حيناً إليه حين فرضت عليه
وظيفته في السلك الخارجي أن يغادر وطنه الأم، وهو أكثر
تلهفاً للعودة إليه :

كم أطفأتني غربة
أقول : آخرُ غربة .. هذا أنا
آت .. وتحملني البيارق
والأناشيد التي
قد أشعلتني بالحماس المشتهى
يا أجمل الرايات..
يا وجه الرياض الأسر .. !!

* *

وهياً ذلك التكيف والانسجام مع الواقع للشاعر لونا من
الاطمئنان الروحي والغنى النفسي، وجنبه مرض العصر الذي
دفع كثيراً من الشعراء الذين رفضوا واقعهم، لكنه مرتاح إلى
مسيرة وطنه المملكة العربية السعودية، معتزّ بنهجها ورؤيتها

الإنسانية والروحية والسياسية، ونهضتها التي رست دعائمها
على أسس ثابتة من القيم :

مئة، ونحن على العقيدة أمة

ما بين كبر السيف والقرآن

كتبت ملاحم نصرها وخلودها

وسمت به وطناً على الأوطان

* *

و هذه المئة من السنوات هي التي قطعتها المملكة في
مسيرتها منذ أن وطّد بناءها المؤسس الروحي لنظامها الملك
عبد العزيز آل سعود، وأقامها على مبادئ الدين الحنيف، مع
سعي إلى التسامح والانفتاح دون أن يقود ذلك إلى
الانحراف أو الضياع أو التعصب والتشتت في مواجهة
الحضارة الوافدة، وعلى أساس الإفادة من معطيات تلك
الحضارة العلمية والتقنية، مع الحفاظ على سلامة الانتماء
والهوية والحفاظ على الذات العربية الإسلامية .

قَاد السَّفِينَةَ وَمَاوَهَتْ عِزْمَاتِهِ

وَصَلَ الْأَمَانَ بِهَا بَيْرَ أَمَانَ

لَيْسَ الْمَهَارَةُ فِي السَّفِينَةِ إِنَّمَا

تَبْقَى الْمَهَارَةُ فِي يَدِ الرَّبَّانِ

* *

وهكذا يتواصل الماضي مع الحاضر في صورة الوطن
لدى "الحنين"، فليس بينهما افتراق ولا تنافر، فهذه الصحراء
العربية التي أنجبت الرسالة المحمدية، وأمدت بقيمتها الرائعة،
وجمع إنسانها مجد السيف والقلم، لا فرق بين طارف وتليد،
وهي تستعيد اليوم نهضتها بهمة رجالها وقادتها :

سَمِرَ الْوُجُوهَ نَسُورٍ فِي مَفَاخِرِهِمْ

وَالرَّمْلَ تَحْتَ خَطَاهُمْ قَامَ مُضْطَرَمًّا

أَرْنُو فَاَبْصُرْ فِيهِمْ كُلَّ ذِي قَلَمٍ

سَيْفًا يَخْطُّ ضَحَى الْأَعْجَادِ أَوْ عِلْمًا

شَمَّ الْأَنْوَفَ رِجَالَ فَوْقَ خَيْلِهِمْ

إِذَا النَّدَاءُ دَعَاهُمْ أَقْبِلُوا حَمَمًا

صحراء يا قلعة الأجداد من مُضِرٍ
إذا هَدَمَ مجد واستَبِيحَ حمى
ومدرج الشاعر الضليل حيث شدا
وابن الدُمينة إذ ذاب الفؤاد دما
يادار مَيَّةً بالعلياء خاشعةً
والخيل تَعْلِكُ في أشداقها اللجما
وما نزال على ما كان أولنا
نرعى على دأب حان بنا الشُّمما
في القلب نحفظ شرع الله من قدم
السلم رائدنا والحق ما دُعما
فالآن تيهي على الأوطان وافتخري
وعانقي السُّحبَ والأنجاد والتَّهما

* *

ولست اتباعية "الخنين" تقليداً وترسماً لحُطَا الذين
حاولوا بعث دياجة الشعر العربي وعموده الشعري،
ليفرضوه على عصر تجاوز فيه الشاعر الوقوف على الأطلال

والتغني بالشيخ والعرار، وهم لم يزوروا البادية، ولم تفتح لهم صدرها، لكن الأمر عند الشاعر "الحنين" مختلف، فهو سليل هذه البادية، وذراتها ممتزجة بروحه، وحين يحنّ إلى مراتعها ويتوغلّ بجمالها، فيرى فيها فاتنة حسناء ومعشوقة ملهمة، إنما يعبر بذلك عن حياته الخاصة وتجربته الذاتية، ولا يستلهم تجربة مستعارة، فلا غرابة أن تمتزج اتباعيته بغنائية إبداعية تعكسها مشاعره :

وأحب هذي اليد إذ تمشي
على رحب الجهات
فلا حدود لخطوها، أبداً، ولا
كان الطريق لمنتهى
هو بعض ما ترك السراب
من أمنيات.. فوق ذاكرة الطلول
أو الشعاب
يادار أحبابي .. هنا في البال
أيام مضين وذاكرات

أيام كان النخل يجمعنا
ونخل الديرة إئتلف الصحاب

* *

ويطيب للشاعر أن يجعل من موطنه الرياض، عادة
حسناء يحنّ إليها ويبادلها العشق ورسائل الغرام:

أنا لم أزل أصبو إليك سعيدا
وأروم وصلاً منك ليس بعيدا
يا عادةً ملأت حياتي نشوةً
جيداً يرقُّ على الهوى وقدودا
ياجارة البید الحبيبة كلما
طاب الحنين طلبتُ منه مزيداً
كانت رياض القلب أشهى ديرة
وهوى الرياض غدا الهوى المقصودا

* *

وفي قصيدة "عشّيات الحمى" يحنّ الشاعر إلى ماضٍ يمتاز
ببساطته وعفويته وصفاء الناس في ملاعب الصحراء، يوم

كان سامر القوم محدثاً بارعاً ينقل أخبار البطولة أو يوقّع
ملاحمها على ربابه، والحياة عذبة مع الطبيعة الساجية
يسودها الحب مثلما يسود أهلها الحنان، صورة "عشيّات
الحمى" في وطن الشاعر تغدو فردوسه المفقود، بعد أن
غابت الإبل سفن الصحراء ليحلّ محلها السيارة والطائرة،
وتبدل الإنسان، وشوّهت الحضارة وجه الصحراء :

كان الزمان بسيطاً طيباً عطراً
وفي المساء يطيب الأنس والسمر
يوم القصائد تُروى في محافلنا
كأنها من كروم الحقل تُعتصر
وأن يغرد طير في مرابعه
فيطرب النجم في علياه والقمر
وأن يعيش جميع الناس في دعة
والأرض يملؤها التحنان والبشر
أبي وأمي حنانٌ لا حدود له

على الصغار، وقلبٌ دافئٌ عطر

* *

والرياح تعبر فوق الرمل عاتية
والغيم يصخب في أحشائه المطر
أنا الملوَّع بالماضي وبهجته
يكاد منه أنينُ الروح ينفطر

* *

ومن البدهي أن يوجّه الشاعر رسالة إلى القرن الحادي
والعشرين، يودع بها قرناً يغصّ بالآلام والمآسي، ويطالب
عالمنا المنهار بالعودة إلى القيم النبيلة لمحاربة الجوع والحروب
التي أوجدتها المطامع وانعدام المثل :

وهذا العالم المنهار
مختل القوى يبدو، ومنحلاً
وآلاف الجياع هناك
عبر شوارع الدنيا
لماذا تُقرع الأجراس ؟

لحزن قد مضى يوماً !!
تُرى أم للذي يأتي !!
وهذا العمر صار إلى نهايته
وضاق الخطو ..
ضاق بأخر الوقت
* *

ويرجو أن يحمل القرن الجديد الحب والأمل للإنسان،
ويمسح أحزان الزمان المنصرم، فلا يبقى في الكون محروم :
يعمّ الخير في الأرجاء
وتبتسم الشفاه لذلك الآتي
بكل نقاء
ويضحك بعد طول الحزن مهموم
* *

وارتباط الشاعر بوطنه، لا يصرفه عن ارتباطه بعالمه
العربي الإسلامي، فعو شغوف بدمشق التي عاش فيها شطراً

من حياته شغفه بالرياض، يعشق دفئها، ويطيب له أن
يسميتها "عصفورة الدار" يقول:

أطوف أسأل عنك الأرض في وله
عليّ أريح خطاً ضاقت علي وهن
عصفورة الدار يا أنفاس زنبقة
ياوردة في رحاب البيت تنفحي
ميادة الحسن يا نهرأ ألوذُ به
لوذ الحماثم بين الغصن والفنن
ياشام ما خفقت في القلب خافقة
إلا وكنت بها من رقة شجني
* *

ويخلد مدينة حلب الشهباء، ويتذكر ماضيها المجيد، أيام
سيف الدولة الحمداني، فيعارض قصيدة الأخطل الصغير
فيها، بقصيدة تصلح أن تُغنى فيقول:
يا ملعب الصيد من حمدان كم صدحت
لك القوافي فكنت النجم والشهبا

قلاعك الشمّ ماذلت ولا وهنت

تطاول الدهر والأتواء والسحبا

* *

ويستثير جرح القدس النافر، ومآثم الصهيونية في ربوع
فلسطين، وقتلهم الأطفال وهدمهم البيوت، واغتصابهم
الأرض ولا يهتز للعالم ضمير :

قتلوا محمد درّة

كان الحبيب صغيراً

قتلوا ضمير العالم الباغي، فما

أبقى الغزاة ضميراً

حملوا لواء الحق منذ شتاتهم

واستعذبوا موت الصغار عصوراً

* *

ويعجب الشاعر بالجنوب اللبناني، وانتصار مجاهديه على

الغزاة، ويرى أن تحريره فاتحة لتحرير المسجد الأقصى :

إن الجنوب يُعيد

أُجمَد العروبة من جديد
ويُعيد تاريخ العروبة من جديد
ويزيل آثار الغزاة دم الشهيد
لم يشهد التاريخ فوق ترابنا
إلا النضال
لم ينكسر خطو مشى للمجد
تحت رحى المحال

* *

وفي شعره الإنساني صدق وحرارة نلمحهما في رثاء أمه،
وقد فجع بموتها، فيبكيها بأكثر من قصيدة، ويبدو أثرها
العميق في حياته وتكوينه :

يشدو فؤادك بالأذكار خاشعة
كما الملائك إذ تلقاك في عدن
أمي .. بعادك يكوي والفراق لظى
وكم غيابك يا أمي يؤرقني ..!
نبقى لديك صغاراً والزمان بنا

يمضي وظلكِ طول العمر ظللني
رضعت منك حليب الحب من صغر
وما نسيت حنانا منك دلّني
في ذمة الله من غابت وفي جدث
من الرياض سقاه المزن في هتن

* *

الشاعر "خالد الخنين" الذي يخرج من عباءة الصحراء،
ويمثل تياراً مازال له حضوره في الشعر العربي المعاصر،
ويجهد أن يكون سداً في وجه هذا السيل العرم الذي يحاول
انتزاع الشعر العربي من أحضان أمه الصحراء، ومن تشكيله
الفني الراسخ .

تُرى .. هل يُكتب له الغلبة في هذا الصراع الذي امتد
إلى ساحتنا الثقافية وهذا ما سيحسمه الزمن، فإما أن نكون
أو لا نكون ..

تجليات الغربة والحنين
في "شظايا العمر"

تجليات الغربة والحنين في "شظايا العمر"

يبدو أن الشاعر السعودي خالد الحنين دارس متميز للشعر العربي التراثي، الذي ترتدّ منابعه إلى نجد التي نشأ فيها وإليها ينتمي، فكان وريث القيم النجدية في الشعر، وابن البيئة التي تقدّس الحب بكل تجلياته والطبيعة بأروع مفاتها، ومع متابعاته النقدية للتراث العربي اتسمت روحه بمُثله وبيانه وأساليبه، واندفعت في نفسه موهبة كامنة، فراح يقرض الشعر فتى، واستوى له متنه، فكانت باكورة نتاجه قصائد شعرية قومية تمثل محطات من تنقله بين العواصم العربية،

وخصّ كل عاصمة منها بقصيدة تُبرز مشاعره نحو هذه المدن العربية التي تحتفظ بخصوصيتها بمقدار ما ترتبط مع بقية العواصم بمقدمات الوحدة التي تجمع بينها، وبدا الشاعر من خلال قصائده شاعراً اتباعياً يلتزم ديباجة الشعر العربي التراثي، وإنساناً فرض عليه عمله الدبلوماسي التنقل المستمر بين الأقطار، وما تمليه الغربة من حنين إلى أسرته ووطنه الأم، لكنه ظل حيناً طبيعياً يلزمه كأبي إنسان فرضت عليه أحوال الحياة أن ينأى عن وطنه، فلم يُتئلَ بداء العصر، ولم يتحول حنينه وتغربه إلى اغتراب نفسي يشلّ علاقته مع الواقع، وأمدّه شبابه الفتي وطموحه ليكون له موقع في الحياة بالقدرة على لجم هذا الحنين وتحويله إلى طاقة خلاقة مبدعة في عمله وفي نتاجه الشعري . لكن امتداد زمن الغربة، وتراجع غرّة الشباب ونذر الكهولة ضاعفت ما يبرّحه من آلام الغربة والتمزّق، فإذا هو في ديوانه الجديد وعنوانه "شظايا العمر" أقلّ صموداً في مواجهة هذا التمزّق والانشطار في حياته، يتضح ذلك في قصائده الوجدانية التي

تنبئ بأن مأساة الغربة لديه أصبحت هاجساً يقلق روحه
بعدما تضاعف طموحه الإنساني، فالزمن يمر والغربة تحصد
سويغات ثمينة من العمر أمضاها بعيداً من أطفاله وزوجته،
فتضحية رجل الدبلوماسية جسيمة تتجاوز رضا النفس عن
التزامات وطنية قدّمها وجهد نبيل سعى إليه .

ربما كان للشاعر خالد الحنين في تراث الشعر أثره في
تعزيز آلام الغربة لديه، وهو وريث هذا التراث، ولا شك أن
معاناته ارتبطت بما قرأه من أشعار الحنين إلى نجد وما تحمّل
من مكابدة :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد

* *

مع الفرق ما بين وضع الشاعر القلدم الذي لم تتجاوز
غربته الأميال، وفي وسط مماثل لمسقط رأسه، ولم تفرض

عليه التزامات العمل قيوداً صارمة في العودة إلى مسرح صباه. بينما يجد الشاعر المعاصر في مغتربه عوائق البعد المكاني والالتزام الوظيفي والفروق الخاصة في أسلوب الحياة وتبدل الوسط . ومع ذلك فإن غربة الشاعر "الحنين" لم تسلمه إلى يأس مدمر أفقده التوازن شأن شعراء الاغتراب المعاصرين، ولم تحمله على التقوقع على ذاته، ظلّ حينئذٍ شفافاً لدى إنسان مؤمن بقيمه للتكيف مع مجتمعه، ملتزم واجباته ورسالته نحو وطنه وأمته، متشبث برسالته في الحياة وإيمانه بها.

هذه الغنائية لديه أو النزعة الرومانسية تتردد إلى أصولها، فقبل أن تصبح الرومانسية تعبيراً عن داء العصر ومرضاً فردياً يقوم على رفض المجتمع كانت في نشأتها في القرن الثامن عشر دعوة إيجابية لبعث روح الأمة . وإثارة طاقات الفرد في خدمة الحق والخير والجمال، ولم يخرج الشاعر "الحنين" من هذه الدائرة، فقصائده القومية تنهل من الهدف القومي الإيجابي، ولعل مآسي الأمة العربية ومحنها

أثارت نزعة الحنين لديه إلى عالم خيال ينتفي منه الألم
والظلم والقهر، فغربة أمتة المعاصرة تماثل تغربه، وقسوة
الحياة تلقي بظلالها على نفسه، وتضاعف أحزانه .

في مقدمة ديوانه "شظايا العمر" يتحدث الشاعر عن مخننه
الفردية، يتأمل عبر نافذة قطار رحيله المتواصل محطات
الطريق التي اجتازها خلال سنوات العمر، فإذا الحياة تتحطم
شظايا متناثرة، فيستبد به الحنين إلى ماضي الطفولة والشباب
يوم كان منسجماً معها، وهو اليوم يبحث عن لحظات
الزمن الهاربة، ويحاول عبثاً إعادةّها، وليس إلا إحساسه
بخریف العمر يعث بأوراق شجرة الحياة المتشظية، وكأنه
ينشد الفناء في الدرب ويعانق الموت في عبث .. يقول :

بسطت له الجناح هوىً فأبأ

خریفٌ شبٌّ من عمري فشأبا

مضى فينا قطار العمر حتى

حسبنا ما يمرّ بنا سراً

وحلمٌ داعب الأعماق ومضاً
 كما رفّ النسيم صدى وغابا
 أعاتبُ لحظة مرّت بيالي
 وقد فارقتُ أهلي و الصحابا
 أكان عليّ أن أمضي غريباً
 كطير الدوح لا يدري إياباً
 ولو خيّرتُ قلبي في ضلوعي
 على يوم اغترابٍ ما استجابا
 هي الدنيا محطاتُ ارتحال
 بكل محطة تُلقني رغابا

ص(١٠-١٣)

* *

لكن عزيمة الشاعر تأبى أن يتخاذل أمام الغربة وطموحه
 الإنساني يتجاوز آلامها . يقول :
 ولكني إذا ما رُمتُ شيئاً
 مضيتُ إليه أخترق الصعابا

سَعَيْتَ بِكُلِّ جِدٍّ وَاجْتِهَادٍ
وَأَحْسَبُ أَنَّ فِي سَعْيِي صَوَابًا
وَأَجْمَلَ مَا يُثَابُ عَلَيْهِ نَبْضٌ
بِرُوعَةٍ مَا سَعَى حَتَّى يُثَابَا
سَيِّقَى مِنْ شَطَايَا الْعَمْرِ ذِكْرٌ
يَدُومُ، وَلَا يَغَادِرُنَا غِيَابَا

ص (١٤-١٨)

* *

نلاحظ أن الشاعر آثر أن ينظم قصائده الوجدانية الذاتية على شعر التفعيلة، بينما خصّ شعره القومي بأسلوب الشطرين، ولعلّه وجد في شعر التفعيلة أسلوباً في التعبير أطوع للجولان في أعماق النفس، وأكثر حرية في تصوير منازعها بصدق، ونلمس أن شعره القومي موصول بالشعر العربي القديم بنفسٍ ملحمي لا ينقطع، وماضٍ من الكفاح يمهّد لحاضرٍ يحتذيه، وقد نجح في إقامة قصائد الديوان على صوتين متميزين، وإن كان شعره الحديث يتشبث بجذور القصيدة التقليدية ويرده إليها وزناً وقافيةً ومنهجاً :

أنا الآن أمضي ..
ألملم ما كان من ذكريات
بقلي، وأناى أسىّ في اغترابي
شبابي الذي كان بستانَ عطر
وخمري معتقة في الخوابي
سألت الكؤوس التي غادرتني :
أما زال فيها بقايا شبابي .. ؟

* *

وأذكر وجهاً مشى في خيالي
بهيّ الجمال، شهّي الرّضاب
أنا الآن بعد انكسار الأمان
أراجع ما كان عبر الكتاب .. ؟

ص(٢٠-٢٢)

* *

نلاحظ أن الخيال يحتل مكان الصدارة في شعره، وتؤلف
صوره عالماً من الذكريات الحبيبة أصبح لدى الشاعر

فردوسه المفقود وحلمه الذي أرهقه، فبدا نسرًا كليل الجناح
فقد هدفه من التحليق، وهجرته مدارج طيرانه، فيقول :

أنا الآن ألقى كما النسر ظليّ
على ما اشتهيت بغيب الجبال
وآن لطير كليل الجناح
بأن يستريح بأفق الأعالي
كأني على جدول العمر طيرٌ
يُغني، فيصحو الصبا بالأغاني
أحبّ الحياة، وما ملتُ عنها
ولا غاب عذبُ المنى في الأمان
فضائي سماوات عشقٍ لذيذ
وكفُّ معتقّةُ بالحنان

ص(٢٣-٢٤)

* *

فالشاعر مفتون بالحياة، يريد لها حباً وانسجاماً ووثاماً،
لكن الحياة لا تصفو له وقد هجرها الحب والسلام، ونأي عن
الأحبة، وتتجلى جذور حنينه النجدي في قصيدة

(موكب العشاق) فيعترف بأنه في العشق والحنين سليل
شعراء نجد وورثهم ، يرده الحنين إلى قمم التوباد وصبا نجد
وسحر الصحراء وقصص الحب العذري .. يقول :

تُرى، من أي عصر والنخيل متيم

بالمجد والصحراء ؟

من أي العصور أنا

سليلُ العاشقين هنا ؟

فما غابت سعاد عن الديار

ولانأت عن ربنا هند

وقيس بن الملوّح ذلك العذري

ما افتقدته عاشقة

ولا نسيتُ أحبّتها بطول غيابهم

هي الأيام ترجع

من كتاب العمر

ما حفظته أيام الصبا عنا

وينطق بالجمال الخالد الأبدُ

ص (٣٠)

* *

لكن الشاعر حادي الشعر النجدي في عصرنا، لا يجد
في الغربة الموحشة آثار ذلك الحب النجدي :
فلا ليلي بهودج عشقها كانت
ولا دعد
كأن الليل يمشي بالظعون سدىً
وليل الغربة السوداء يمتد
وهذا العشق في الوجدان يحتدّ
فكيف ترى ..
سيختصر القوافل صوت حاديها
وينأى بالأحبة ذلك البعد ؟
كأن الليل يمضي بالمواعيد الحزينة
حيث لا صبحٌ يجيء يوماً
تمنياه، أو وعدٌ

ص (٣٢)

إن صورة هذا العشق العذري تؤكد أن الشاعر ما زال
ماثلاً في حياة الرجال و النساء في وطنه بخياله، فما زال
الإنسان العربي في جوهره أميل إلى الحفاظ على عهد البراءة
في الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة، على الرغم من غزو
المدينة ما زحزحته من قيم فليس غريباً أن نجد في حياتنا
المعاصرة قصصاً مثل قصص ليلي والمجنون و ليلي الأخيلية،
لأن أثر المدرسة النجدية في الحياة كان قوياً ولم يقوَ على
مبازل المدينة ودفعها للقيم جانباً، وليس غريباً أن يتألم
الشاعر على واقع الحب في حياتنا المعاصرة :

لا دارٌ لَمِيَّةَ يستريح القلب

تحت ظلال نخلتها

ولا طير على أغصانها تشدو

وحادي العيس مهمومٌ

بما تمضي به الأيام

أو تجري

كأني عابر هذي الحياة

بليل أحزاني
هنا .. لو شئتَ تلقاني
غريباً مرّاً، أو طيفاً
تكاد على الأسي تهوى
على موالي المجروح أغصاني

ص (٣٤-٣٥)

* *

وتحتل الأسرة أبرز صور الحنين لدى الشاعر، وهي التي
تعاني كأي أسرة يعمل ربّها في السلك الدبلوماسي :
سلاماً والنسيم يمر من نجدٍ
أقول : سلامٌ أحبابي
يمرُّ وصوتها هذا الذي
يختالُ في بابي
وذاك أبي بطلعته الجميلة
تلك أُمي في بُكور الصبح
تدعو لغائبها :
عليك سلامٌ قلبي، ليتَ

لو تدري أنا في البعد

يا قمري، أنا ما بي ؟

ص(٤٢)

*

*

ويفوق حنينه إلى الحبيبة أي حنين، ويُسمَّ عدداً من
القصائد باسمها، فهي زينب وليلى وهند وهي تارة الحبيبة أو
الزوجة، وتارة أرض نجد وملاعب ذكرياته فيها، فهي المرأة
المعشوقة في قوله :

ما كان لي في دوحة الأسماء

إلا زينب

امشي، فينكسر البنفسج

عبر ثغر كوكب

وأنام، أحلم أن عينيها

ملاذ المتعبين

وأن صدراً غصّ بالرمان

يفتن عاشقين

وأن نهرأ من جدائلها لكفي ملعب

والصبح يوشك
أن يَهْلَ على الجبين

ص(٥٢)

* *

وهي المرأة الوطن في قوله :

هي ذي ربوعك يا وطن
في القلب يخطر سحرها
طول الزمن
وأنا أليف الذكريات
أنا المشوق بحبها
وأنا المعلق باسمها
وعلى ربها كم خطوتُ
وكم درجنا في بواديها صغاراً
وانتشرنا فوقها حلماً
يسافر في الأماني
ثم يغفو في شجن

ص(٦٠)

* *

ويسوّغ الشاعر حنينه إلى الوطن، إنه جدير بهذا الحنين،
فهو وطن انبعثت منه أكرم الرسائل، وأعزّه الله بالإسلام،
وهو في ماضيه المشرق مسرح لصور الحب العفيف وواحة
عطر وملاعب للطير :

وطني إذا عددتُ للنعم التي
أعطيتها لم أحصها أرقاماً
بوركت من وطن أقام على التقى
صرحاً وأحسن في العصور قياماً
الله كرم بالبيان ثرابه
وأعزّ فيه الحقّ والإسلاما
وحمى شعائره ووحد شعبه
وأعدّه للعاكفين مقاما
جناته العطراتُ طرقي لم يزل
فيها يجول وينهل الإلهاما
أمشي وأسراب النخيل بجاني
فوق الرمال توزّع الأنساما

من كل واد ذكرياتٌ للعلی
وحكايةٌ شَفَّتْ هوىً وغراما

ص (١٥٣)

* *

وهو وطن يؤهل ليعيد تاريخ أجماده، مثلما حرر أرض
العروبة من قبل، يعيد الشاعر ماضيه، فيقول :
وطن النجوم .. وليس من وطن سواك
يزهو بثوب الكبرياء، ويزدهي
بشموسه فوق الأراك
طف بالعلاء، واملأ رحابك بالمنى
وازرع بسارية البروق
التمتمات الواعدة
من أمة تمضي إلى أجمادها
حفت بها تلك السطور الخالدة
للباطل المزعوم جولته الأخيرة
إنما للحق جولات الإباء
وراية النصر اشتعال الأغنيات

إلى ذراها الصاعدة

ص(١٦٩)

* *

وأحزان الشاعر الفردية في مغتربه ترويهها نكبات الأمة

فيقول :

أفيقي على جرحنا يا شعوب

أفق أيها العالم المستباح

بنعل يهوذا

هي الآن توحف

فوق الثرى العربي الخطوب

ص(١٢٨)

* *

ويلمح فسحة من الأمل بكفاح أطفال الحجارة

وتضحيات شهيدات الأمة العربية .. فيقول :

لك المجد يا طفلة كالجدار

بوجه الطغاة

ويا كومة من حجارة عزّة

تعصف فوق المدى كالجحيم
أفيقي تَرَيْ غابة من نجوم
تمضيء على الأفق
تمضي بنا للصباح المنير

ص(١٣٠)

* *

وهكذا يمتزج حزنه الذاتي بحزن الأمة التي عقها العالم
الغربي، وأنكر ما قدمت للحضارة وللعالَم وللإنسانية من
مآثر، ويعلق الأمل على الجماهير العربية التي خافها الساسة،
ويتفاءل بأنها المنتصرة في المعركة :

وها نحن نرحف مثل الجحيم
إذا الصبح جاء
طوينا كتاب الأسي، واستفقنا
منايا ستخلع زيف الحدود
وتصنع فجر البلاد وتمضي لعرس الخلود

ص(١٣٣)

* *

قد يرفض المذهب الواقعي في الشعر أن يستسلم الشاعر المبدع إلى أحلامه، لكنها تتجاهل أنها تجرد الشعر من أروع سماته، فما كان الواقع قبل أن يتحقق سوى حلم من الأحلام راود عظماء التاريخ، والشاعر حين يفجّره ميرزاً حنينه بقطف النجوم بيديه إنما ينهض بالعزائم التي أقعدها الظلم واليأس، إنه يصنع ثورة الإنسان التي أثبت التاريخ أنها أقوى من كل سلاح. وإن الحنين الشديد إلى الحلم وما يتضمنه من مثل وقيم سيظل الزيت الذي يُصب على نار الشعوب المغلوبة .

وقصائد الشاعر "خالد الحنين" القومية تدور في هذا الفلك، ولعله تجاوز الحدود الوهمية التي أوجدها المستعمر بين نزعة إسلامية تنهل من الدين الحنيف، ونزعة قومية تتكئ على التاريخ القومي، فقد أطلّ على قومه متسلحاً بكل تجليات تاريخ الأمة العربية، ورائده صدق الشاعر والإخلاص للهدف، وأمدّه ذلك بتدفق شاعري يجمع بين المذاهب الأدبية، ويربط بين أساليب التعبير بطواعية واقتدار، فهو شاعر متمرس، رمّم طريقه الشعري، ومازلنا ننتظر منه الكثير .

"نجد"

ومفاته الشعرية

نجد (*) ومفاته الشعرية

لهضبة نجد في شعرنا العربي صورة متميزة، وحضور ملحوظ يصعب تعليلهما أو ردهما إلى سبب معين، فلو عزونا ذلك إلى كثرة الشعراء في هذا البلد عبر عصور الأدب، لما عرفنا بلداناً أخرى برز منها شعراء كثيرون غير أنهم لم يتعلقوا بأوطانهم ولم يبرزوها في شعرهم، تعلق الشاعر النجدي بوطنه، و لو أرجعنا الظاهرة إلى الطبيعة (*) - نجد : يجدوز فيه التذكير باعتبار لفظه وأنه بلد، والتأنيث باعتباره أرضاً أو هضبة أو

بلاداً .

الوفاء في أهل نجد للوطن وساكنيه، لما كنّا مجانبين للصواب،
وقد نرد ذلك إلى طبيعة هذا البلد حيث وصفها رؤبه ابن
العجاج بقوله: (شهر ثرى، وشهر ترى، وشهر ترعى، وشهر
استوى) فهي منبت العرار والخزامى والحوذان والأقحوان
والريحان، ومهد النخيل ومنها هاجر الكثير إلى مصر وما بين
النهرين .

وهي بلد الأجواد ومنهم حاتم الطائي، والشجعان
الفوارس ..

على أن أقوى هذه الأسباب كلها رقة في طبع النجدي،
ورهاقة في الشعور وصدق في العواطف، فلا غرابة أن يكون
موطن الغزل العذري العفيف (وادي القرى) القريبة من
نجد، وهو غزل يعكس سمو نفوس أهله، وثباتهم على الحب،
ونبلهم الإنساني، ومن عجب أن عدوى التعلق بنجد من
أهله وساكنيه قد امتدت إلى غير أبنائه من الشعراء حتى
أصبح الحنين إلى نجد تقليداً لدى الشعراء العرب، فirqها

يذكر بالأحبة أينما كانوا، وريحها الرقيقة تحمل رسائل
الوجد واللهفة إلى العشاق .

ونجد في جغرافيتها الحالية هضبة مترامية الأطراف في
الجزيرة العربية، تقع بين صحراء النفود في الشمال والربع
الخالي في الجنوب، وبين الحجاز شرقاً والإحساء غرباً، غير
أن الباحث الأستاذ " خالد بن محمد الخنين " في مؤلفه
بعنوان (نجد ومفاته الشعرية) يستعرض تعريفات لبلدة نجد
متباينة عند القدماء، فقد قيل: حد نجد هو اسم للأرض
الأريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام،
وروي عن ابن السكيت أنه قال : سمعت الباهلي يقول: كل
ما وراء الخندق الذي خندقه كسرى على سواد العراق، فهو
نجد إلى أن يميل إلى الحرة فإذا ملت إليها، فأنت في الحجاز،
لكن شعر الشعراء في نجد لا يشير إلى هذه التسمية الواسعة
في أغلب أشعارهم، وإن كان يوحى أحياناً بهذا المعنى ..
يقول أبو الحسن التهامي :

فأن يكُ شخصي بالثغور فمهجتي

(بنجد) سقاه المزن صوب غمامة

والشاعر من قمامه، وهو يعدها من نجد، في حين يذهب
ابن الأعرابي إلى أن "نجداً" ما بين العذيب إلى ذات عرق،
وعرق أول قمامة إلى البحر، فهو يخرج قمامة من نجد . وفي
معجم البلدان لياقوت الحموي ورد أن (كل مرتفع عن قمامه
فهو نجد) .

ومهما يكن من أمر فإن نجداً أوحى بأروع ما كتب في
أدبنا من شعر في الحنين إلى الأهل والديار، فالتجدي يفارق
وطنه والأسى والحسرة يعمران قلبه :
أقول لصاحبي و العيس هوى

بنا بين المنيفة والضمار

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

والباحث الأديب خالد بن محمد الحنين بنجدي الأرومة،
ولعله امتحن بفراق نجد لأنه يعمل في السلك الخارجي

وعانى من الغربة، مما زاد تعلقه بوطنه الذي تغنى به الشعراء، وكان من دأبه أن يشفي حنينه بسماع ما قاله الشعراء في نجد، ثم جمع ما ورد في دواوين الشعر العربي حتى توافرت له مادة غنية حقاً، ما كان يخطر ببال دارس الأدب أن تكون في هذا الحجم، وخرج بها إلى الناس كتاباً أنيق الطباعة، حسن التبويب ومادته من صفوة ما قيل في شعرنا العربي، إذ ليس في أبياتها ضعف أو التواء، وإنما هي من الجودة لأنها بنت العاطفة، والشعور الصادق، مما يثبت أن أجمل الشعر أصدقه تعبيراً عن شعور صاحبه .

وقد تحدث الدكتور عبد الكريم اليافي بمقدمته الرائعة.. وبأسلوبه الأخاذ عن الشعر النجدي، ويسر تعلق شعراء أبناء نجد بوطنهم، فردّ ذلك إلى طبيعة أرضها وأهلها، وكثرة الشعراء المبرزين فيها . وقد أبرز صلة النجدي بأرضه ونباها وحيوانها، ثم وصف مناخها اللطيف المعتدل، وفي ذلك كله ما يفتق قرائح الشعراء، ويشد أبناءها إلى الإقامة فيها حتى

يسوؤهم السفر العابر، فتجود عاطفتهم بالحنين إليها وذكر
ديارها ومحاسنها :

سلم على قطن إن كنت نازله
سلام من كان يهوى مرة قطنا
أحبه و الذي أرسى قواعده
حبا إذا أعلنت آياته بطنا
يا ليتنا لا نريم الدهر ساحته
وليتها حين سرنا غربة معنا
ما من غريب وإن أبدى تجلده
إلا تذكر عند الغربة الوطن

وإذا كان الباحث (الحنين) قد استرشد في مختاراته بذكر
كلمة (نجد) في كل شعر جمعه، فإن الدكتور (اليافي) يوسع
أفق الاختيار وفرصه، فيستأنس بما يعرفه من أسماء شعراء نجد
ومواطنهم، وما قيل في جبال نجد ووديانه، وعشاقه الغزليين
حتى تكشف لنا حقائق عن نجد ما كنا نعرفها أو نفطن
إليها، فقد أظهر في مقدمته ما قيل في نجد يتجاوز بكثير ما

أورده (الحنين) في المختارات . وأن شعراء نجد يكادون
يحتلون نصف ديوان الشعر العربي .

أما الباحث (الحنين) فقد بيّن هدفه من جمع المختارات .
إذ عكف على العمل بدافع انتمائه إل وطنه، وحرصه أن
تعم المتعة والفائدة لمن يحبون نجدا وما قيل فيها، ونضيف إلى
أنه قدم بهذا العمل فائدة جلية لدارسي الأدب والمهتمين
بالعادات والتقاليد وشؤون المجتمع من الباحثين مثلما أسهم
في جمع معجم جغرافي وعلمي يتناول أسماء الأماكن والمعالم
في نجد، والنبات والحيوان فيها، وشتى المناسبات التاريخية
التي أشار إليها الشعراء مما ينفع المؤرخ، ودارس الأدب . أما
منهجه في تصنيف مختاراته، فيشير إليه في مقدمة الكتاب
قائلاً: (وقد رتبت القصائد ترتيباً معجماً حسب
القوافي... وخرّجت كل قصيدة من مصادرها، فأثبت هذه
المصادر في أسفل كل قصيدة، ثم شرحت الكلمات التي
تحتاج إلى الشرح وأحببت أن أترجم للشعراء والشواعر على

نحو موجز، وجعلت ذلك بعد قصائد الشعر في نهاية الكتاب...

وانما للفائدة، ولسهولة العودة إلى الكتاب . وضعت
فهارس فنية له تشمل: فهرس الشعر-القوافي- فهرس تراجم
الشعراء على الترتيب الهجائي- المصادر والمراجع- فهرس
الموضوعات) .

ولم يشأ الباحث المؤلف أن يرتب ما جمع ترتيباً زمنياً
ومكانياً، وإنما أثر أن يقدمه للقارئ بالعقوبة ذاتها التي تقدم
بها القصائد نفسها، فنجد أبياتاً للطرماح (١٢٥هـ) في نجد
يستهل بها المؤلف مجموعته، تليها أبيات لمهيار السديمي
(٤٢٨هـ) . فلا يجمع بينهما تسلسل زمني أو ارتباط
مكاني .

وأما خطته في الجمع، فقد اختار القصائد التي وردت
فيها كلمة (نجد) من الشعر العربي القديم والحديث، حتى
تجاوز ما جمعه أحياناً حدود مصطلح كلمة نجد أحياناً، فلم
تكن بعض مختاراته تتجه بالخطاب إلى (نجد) البلد المعروف،

وإنما كان المقصود بالنجد فيها المرتفع من الأرض كقول
الشريف الرضى :

سجاياء وعين المجد في تطلعاته

دنا قلن في العلياء فوراً إلى نجد

فالنجد هنا بمعنى المكان المرتفع، والشاعر يوري في
الآيات كلمتي العلياء ونجد .

والأديب الباحث الأستاذ (خالد الحنين) دقيق النقل،
أمين في رواية النص وقد أفرد لتخرجه حقلاً مخصوصاً ذكر
فيه المراجع والمصادر التي اختار منها، مثلما شرح مفرداته
وتراكيبه . ووضع مدخلاً لغوياً وجغرافياً للكتاب تحدث
فيه عن معنى كلمة نجد، وتعريف نجد من الناحية الجغرافية
قبل أن يسرد النصوص . وذلك كي نعيش لحظات مع أروع
ما كتب في الحنين إلى "نجد" من خلال هذه المختارات، ففي
الثبات على حب "نجد" يقول الشاعر مهيار الديلمي :

ياسائق الركب غريباً وراءك لي

قلباً إلى غير "نجد" غير منقلب

هكذا يسير ركب الشاعر أما قلبه فلا يتحول عن وطنه.
والشاعر الدمشقي ابن الخياط .. يتعشق نسيم "نجد"
وعبيره الطيب في مطالع تقليدي وقد كان رياءً صباها يفقده
صوابه :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه
فقد كان رياءً يطير بلبه
و إياكما ذاك النسيم فإنه
متى هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو أحبيتما لعلمتما
محل الهوى من مغرم القلب صبه
وكذلك نلمس حنين الشاعر الصمة القشيري إلى أحبته
في "نجد" ولعله من أعظم الشعراء الذين خلدوا هذا البلد في
أشعارهم .. يقول :

إذا ما أتيتم أهل نجد وعريت
قلائص أدتكم وقد طال درهما

فمضى عليهم فاقروون تحية

يخص بها شبان قوى وشيها

تحية مشتاق إلى أن يراهم

و رجع أماتيل يفدي غريبها

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضكم

أتتنا برياكم فطال هبها

أتتنا بطيب المسك خالط عتراً

وريح الخزامى باكرها جنوها

وللبرق النجدي نصيب في شعر الشعراء، لأنه سنا

المحوبة في نظر الشاعر المتصوف ابن الفارض .. يقول :

أوميض برق بالأبىرق لاحا

أم في ربا نجد أرى مصباحا

أم تلك ليلي العامرية أسفرت

ليلا فصيرت المساء صباحا

وتراب نجد يعدل كل غلال الأرض في نظر الشاعر

عمار بن البولانية حين يقول :

ألا ليت لي نجد وطيب ترابها

بهذا الذي يجري عليه النوارج

والندى في نجد حين يياكر الحصباء فيبلها ألد واشفى

من ماء أي بلد فقال الشاعر :

تلفت من حلوان والدمع غالباً

إلى أهل نجد أين حلوان من نجد

لحصباء نجد حين يضرها الندى

ألد و أشفى للعليل من الورد

وثرى نجد ينبت أشواقاً في قلوب المحبين، ويسلب فؤاد

الخلى فيشجيه، يقول الشاعر على بن الحسين بن علي

"صردر" :

النحاء النحاء من أرض "نجد"

قبل أن يعلق الفؤاد بوجد

إن ذاك الثرى لينبت شوقاً

من حشا ميت اللبانات صلد

كم خلى غدا إليه وأمسى

وهو يهذى بعلوة أو بهند

ونساء نجد .. أجمل النساء، فهن يستقبلنك بجيش من

الجمال :

و ظباء فيه تلاقي الموالي

والمعادي من الجمال بجند

بشتيت من المباسم يغري

وسقام من المحاجر يعدى

أنفت من براقع الخز والقز

خدور قد برقوها بورد

وحب النجديات لا شفاء منه، فهو عالق بالقلب،

وأهلها يتغزلون ولو شابوا وقد أنشد الشاعر الأصمعي

لأعرابي من نجد يدعى دوسر :

وقائلة ما بال دوسر بعدنا

صحا قلبه عن آل ليلي وعن هند

فإن تك أثوابي تمزقن للبللى
فإني كنتصل السيف في خلق الغمد
وإن يك شيب قد علا في فرما
أراني في ريع الشباب مع المرد
طويل يد السربال أعين للصبا
أكف على ذقراى^(١) ذا خصل جعد
والشاعر ابن الدمينه الذي كان العباس بن الأحنف
يطرب ويترنح لشعره، لا يجد لنفسه شفاء من الحب
النجدي، وهو البدوي الصادق في حبه .. يقول بعد مطلع
أبياته المعروفة :

أ أن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على غصن غض النبات من الرند
بكيت كما يكي الوليد ولم تكن
جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي
و قد زعموا أن الحب إذا دنا
يمل وأن النأي يشفي من الوجد

بكل تدواينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد
أحسن إلى نجد فياليت أنني
شقيت على سلوانه من هوى نجد
وشعر البداءة والأعراب والأعراب في "نجد" شعر مطبوع،
يبدو أكثر صدقاً من شعر المتأخرين الذين استعادوا الحنين
إلى "نجد" أسلوباً تقليدياً يستهلون به قصائدهم ..
قال أعرابي وقد سمع صوت حنين الدواليب " النواعير " :
حنت وليس تحن من وجد
وأحن من طرب إلى نجد
فدموعها تحيا الرياض لها
ودموع عيني أحرقت خدي
وبساكني نجد كلفت وما
يغني بهم كلفي ولا وجدي
لو قيس وجد العاشقين على
وجدي ل زاد عليه ما عندي

وأكثر أولئك البداءة الأعراب، قد أغفل تاريخ الأدب
أسماءهم، ولعلمهم نظموا البيت أو البيتين ولم يلهج لسانهم
بالشعر إلا في "نجد" والحنين إليها، فقد نزعتهم البعوث
والقوافل الحربية من ديارهم، ولم يألفوا الاغتراب من قبل
فَسَالَ الشعر على ألسنتهم صادقاً :

أكرر طريفي نحو " نجد " و إنني

إليه وإن لم يدرك الطرف أنظر

وما نظري من نحو " نجد " بنافعي

أجل لا، و لكنني إلى ذاك أنظر

أ في كل يوم نظرة ثم عبيرة

لعينيك مجرى مائها يتحدر

متى يستريح القلب إما مجاور

بحرب و إما نازح يتذكر

وليست البلدان الأخرى في نظر هؤلاء الشعراء كنجد
الوطن، وأين جمال الصحراء من صخب الديكة والسنانير في

الريف، وهذه بنت نجد الشاعرة " رامة بنت الحصين " تزد
الحضر فلا تستطيعه .. ونحن إلى البدو فتقول :

ياليت شعري وليت أصبحت غصصا

هل أهبطن قرية ليست بها دور

لقد تبدلت من نجد و ساكنه

أرضا بها الديك يزقو و السنانير

ومن يتأمل اليوم حركة الهجرة إلى المدن، يجد عجباً، فقد
تحول الإنسان العربي من عاشق لبراءة الطبيعة .. إلى مستسلم
لإغراءات المجتمع العربي، وما يوفره من حاجات المجتمع
الاستهلاكي، مع أنه يستبدل بالهواء النقي السم الزعاف،
مثلاً يستبدل بنظافة الصحراء وبعدها عن التلوث وما توفره
للإنسان من فضاء، زحام المدن وضجيجها .

وتغدو "نجد عند الشاعر" الأبيوردي " رمزاً للعروبة
الصفافية، إذ يشعر بالتغرب وهو يسكن بين قوم ليسوا عرباً :

فهل سبيل إلى نجد و ساكنه

يهز من ألف المصرين للظعن

هل أهبطن بلاداً أهلها عرب

لم يشربوا غير صوب العارض الهتن

إن يجمع الله شملِي - يا هلنم - بهم

فلست ماعشت بالزاري على زمن

وهكذا نرى أن صورة "نجد" و"مفاته الشعرية" رائعة ما

رسم مثلها أدبنا لبلد، ولاتدانيها إلا صورة "لبنان" في شعر

المهجرين، والبلدان يتقاربان جمالا وارتفاعاً، مثلما يتقارب

أهلها حبا للوطن وشغفا به، وإن كانت هجرة النجدي

محدودة لم تتعد ديار العروبة والإسلام، فإن هجرة

اللبنانيين كانت أبعد مدى وأكثر غربة لأنها نقلت الإنسان

العربي إلى طبيعة غريبة عنه من عادات وتقاليد وقيم .

إلا أن كتاب (نجد ومفاته الشعرية) للمؤلف خالد

الحنين يظل أروع مخطوط في الحنين من حيث براءة العاطفة

ومتانة التعبير، ويبقى خير مرجع يتعلم منه الأجيال كيف

ارتبط الأجداد بالأرض، وما أغرقتهم عنها مباحج الحياة ..

نجد وأصداء مفاته
في الشعر العربي

نجد وأصداء مفاته

في الشعر العربي

- ١ -

نلاحظ أن ديوان (نجد وأصداء مفاته في الشعر العربي) عمل أدبي وتوثيقي متميز قام به وحمل عبئه الباحث الشاعر السعودي " خالد بن محمد الحنين " وقد جمع فيه ضمن ثلاثة أجزاء ضخمة ما قيل من شعر في مسقط رأسه وفاء منه لهذا الإقليم الذي احتضن الشعر العربي منذ نشأته، فكان على مرّ العصور منبت الشعراء الكبار من أبنائه، وملهم الشعراء من غير أبنائه لما حباه الله من جمال الطبيعة واعتدال المناخ

(*) - نجد وأصداء مفاته في الشعر العربي .. للباحث السعودي : خالد الحنين .. الجزء الأول منشورات: دار ابن حزم . بيروت - لبنان

ورحاء النسيم ووفرة الخصب حتى انعكس ذلك كله على
أهله دماثة وكرماً وطيب معشر . فلا يرحونه إلا وقلوبهم
معلقة به، ولا يرتضون عنه بديلاً من الأوطان . لكأنه جنة
عدن مبارحها معذب معني .

وعلى امتداد الزمان أصبح "نجد" أرضاً غير محدودة
بالمكان، لقد أصبح مثلاً أعلى للشعراء على امتداد العالم
العربي الإسلامي، يستلهمون منه حلمهم في الحياة الهائلة عبر
كل العصور، فقد خرج "نجد" من دائرة الجغرافية والتاريخ
والواقع إلى دائرة الأسطورة الجميلة في الأذهان، تغذي
خيالهم، وتعبّر عن حنينهم إلى المطلق، وما أكثر الشعراء
الذين زاروا نجداً في خيالهم وعرجوا على قراها ومعالمها،
وبثوها لواعج وجدهم، وهم لم يعيشوا فيها طويلاً أو مروا
بها سراعاً، ولم يعد ما عرفوه عنها وما قرؤوه من شعر أبنائها
الذين اكتووا بنار الحنين إليها حين مبارحتها فكانت
أشعارهم سبيلاً إلى قلوب الأجيال، ونموذجاً يتبع في الوقوف
الإنساني على الأطلال والغزل والنسيب ووصف الطبيعة،

وتمجيد المثل في المديح والثناء، بل كانت منهجاً للشعر وعموداً له يحتذى بهما الشعراء اللاحقون، ومدرسة للفصاحة والبلاغة، فشعراء "نجد" الأوائل هم الذين أرسوا التقاليد الشعرية، وحافظوا على أصولها، ولو حذفت من ديوان الشعر العربي أعلام شعراء من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين لتقوّضت خيمة الشعر العربي وانهدّت أركانه . ومن يستطيع أن يحدد أثر هؤلاء الآباء من شعراء الجاهلية أمثال امرئ القيس الكندي سليل ملك أسد وغطفان في نجد، واضع أسس الشعر العربي ووارث تقاليده المتحدرة من أساتذته ومنهم "المهلهل" أو ينقص من شاعرية "عمرو بن كلثوم" سيد تغلب ومرسي مبادئ الفخر في الشعر العربي أو يغفل أثر "عروة بن الورد" الثائر على التفاوت الطبقي الاجتماعي، و"زهير بن أبي سلمى المزني" نزيرل نجد، ومؤسس مدرسة التنقيح والتهذيب في الشعر العربي . و"النابعة الذبياني" و"طفيل الغنوي" صاحب الشعر المحبّر .

ومن المخضرمين "الكميت الأسدي" و "أعشى قيس" و
"كعب بن زهير" و "عروة بن حزام" و "ليد العامري" و
"الخنساء السلمية" .

فمن حق "نجد" أن يفخر بما قدّم من المواهب، ومن حق
سليل نجد الباحث الشاعر "خالد الخنين" أن يعتزّ بهذا التراث،
ويصونه من البدد والتفرق، فيجمعه وفق منهج صارم
وموضوعي تشدّد فيه، فلم يذكر من الشعراء الذين تناولوا
نجداً إلا قصائدهم التي نصّت على الاسم صراحة من
النجديين وسواهم عبر مختلف العصور، ولم يكن من همّه
كما يقول أن يختار مما قيل في نجد من الشعر محكماً ذوقه
متخيراً أجمله، بل سلك وجهاً آخر للاختيار، إذ شدته ظاهرة
كثرة ورود ذكر "نجد" في قصائد الشعر العربي لأمر لم
يشغله دواعيه، وإن كان يردّ إعجاب الشعراء بنجد إلى
جمال الطبيعة وسحرها .

وقد يتفق الباحثون على أن في الدنيا ثلاث بقاع عُرِفَتْ
بجمال الطبيعة، تلك هي: صُفْدُ سمرقند، وغوطة دمشق،
وشعب بوان، ومع شهرة تلك البلدان فإن ذكرها في الشعر
العربي قليل، بينما "نجد" كان ماثلاً في قصائد الشعر
العربي، ولا تفسّر تلك السيورة والشهرة إلا بالمنزلة التي
احتلها الشعر النجدي في التراث، فأصبح مثلاً في النسج،
وعموداً للشعر، وأصبحت صورة "نجد" كما رسمها أبنائه
والمقيمون به رمزاً للجمال والفتنة .

عندما قرر الباحث "خالد الخنين" جمع هذا الشعر، كان
بين مفترق طرق، فأسلافه من جامعي الشعر كانت لهم
مناهج عديدة في الجمع، منهم مَنْ بَوَّبَ المجموعات الشعرية
على أساس الموضوع أو القبائل، أو المكان، ومنهم مَنْ اعتمد
الطبقات الشعرية حسب مستوى الشاعر الفني كابن سلام،
بينما آثر "الخنين" أن يعتمد تصنيفاً لما قيل في نجد من الشعر
على تسلسل العصور بدءاً من الجاهلية حتى العصر الحديث
في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ثم عمد إلى صورة شعر

المشاركة فصنف شعراءها زمراً وفق انتماءاتهم إلى العصور التاريخية :

- ١- شعراء في العصر الجاهلي
- ٢- مخضرمو الشعراء بين عهد بني أمية والعباس
- ٣- شعراء العهد العباسي
- ٤- مخضرمو شعراء بني العباس والدولة الفاطمية
- ٥- مخضرمو العهدين الفاطمي والأيوبي
- ٦- شعراء عصر الدولة الأيوبية
- ٧- مخضرمو العهدين الأيوبي والمملوكي
- ٨- شعراء الدولة المملوكية

واستقام له جمع كل ما قيل في شعر المشاركة .

كما لم يعتمد في هذا التصنيف التاريخي مَنْ ورد في شعره ذكر لنجد من الشعراء المغاربة وشعر الأندلس، لأنهم منقطعون عن دائرة هذا التصنيف بل جعلهم زمرة واحدة بتعاقب تسلسل أفرادها حسب السياق الزمني لوفيات هؤلاء الشعراء، وأفرد لشعراء العهد العثماني باباً مستقراً، ثم زمرة

المخضرمين بين العهد العثماني وعصر النهضة، تتلوهم زمرة الشعراء بعد عصر النهضة من بداية النصف الثاني من القرن العشرين إلى مطلع عصر النهضة .

كانت حصيلة هذا الجهد الكبير خمسة عشر فصلاً تمّ تصنيف الشعراء في داخلها حسب تاريخ وفاة كل منهم، فمن لم يُعرف تاريخ وفاته ألحقه الباحث "الخنين" في آخر الفصل، وعزا كل نص شعري إلى قائله وأشار إلى اختلاف جامعي النصوص قبله حول نسبة بعض النصوص لأكثر من شاعر، وألزم نفسه بالألا يذكر من الشعر عن نجد ما لم يرد فيه نصاً ذكره، وقد يتفاوت بعضه عابر لا يتعدى اللوح في البيت الواحد، وبعضه أكثر بروزاً يقف عنده الشاعر وقفة أطول في بنية القصيدة فكان "الخنين" يقطعها منها محافظاً على مناسبتها وموقعه من السياق، وقدّم للتعريف بكل شاعر ترجمة موجزة لحياته، عني بها بصلة الشاعر بنجد انتماء أو نسباً أو إقامة أو مروراً عابراً أو محاكاة متخيّلة واتباعاً لمن سبقه في تخليد نجد، ثم صنف المعاني التي تناولها الشعراء في

كشف تحليلي مختصر ليسهل للدارس المتابع عبء الرجوع إلى المراجع والمصادر الأدبية، ويضع بين يديه مادة جاهزة للبحث حسب معانيها، ولكي يمهّد للقارئ والدارس الدخول إلى عالم نجد في الشعر العربي، إحداها بقلم لغوي معجمي هو العلامة لسان الدين بن منظور الذي تطرق إلى تعريف "نجد" لغة في معجمه "لسان العرب" ودراسة أخرى لجغرافية نجد منتزعة من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي العالم الجغرافي الشهير، ثم أتبعها بدراسة منتزعة من "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وأخرى لبقاع نجد وعشبه بقلم مؤرخ نسابة هو "لسان الدين الهمذاني اليميني" من كتاب (صفة جزيرة العرب) و ذيل الكتاب بخمسة فهارس تعين القارئ للوصول إلى بغيته بسهولة , تتضمن :

١- عناوين فصول كل جزء من المجموعة

٢- أسماء الشعراء أصحاب القصائد المختارة مرتبة

على حروف الهجاء .

٣- أسماء الأعلام من غير الشعراء ممن ورد ذكرهم .

٤- أسماء الأقاليم والبلدان والأماكن والمياه .

٥- الأقوام والشعوب والقبائل .

لقد بذل الباحث "الخنين" وجهد في ضبط النصوص، وشرح بعض مفرداتها الغريبة، فكان عمله لا يتصدى له إلا المخلصون لأمتهم والتراث، واهتم بالإشارة إلى المصادر والمراجع التي اقتبس منها النصوص، وجهد القدامى في تحقيقها ونسبتها إلى قائلها في هوامش كل ترجمة . ويأتي جهد "الخنين" في التوثيق ضمن نهج محدد هو دراسة الأدب في ظلال البيئة التي أفرزته، وفي إطارها المكاني والزمني، وإبراز أثر هذه البيئة في حياة الإنسان الذي عاش فيها، ومنعكساتها على سلوكه وقيمه، وإن دراسة الشعر حسب بيئته وربطه بها منهج عرفه النقاد العرب القدامى، مثلما تبنته مدرسة "تين" الناقد الفرنسي في الغرب، ونادى به الناقد المصري "أمين الخولي" وقد رأى أصحاب هذه المدرسة في الأدب لوناً من المحاكاة لكنها ليست بمعنى النقل الحر في

للطبيعة، إنها تصوير للواقع المشحون بمشاعر الإنسان وانفعالاته وقيمته، فذاتية الشاعر تضيف على الواقع سماها وخصوصيتها .

والشارع النجدي أو المعجب بنجد ليس جغرافياً أو عالم طبيعة أو مؤرخاً، إنه إنسان يتأثر من واقعه ويرسمه بشعره من خلال رؤيته الشعرية، ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم المختصر التحليلي لمعاني الشعر الذي وضعه الباحث والمتعلق بصورة "نجد في الشعر العربي" ولما كان الواقع يتبدل من عصر إلى آخر، ومن شاعر إلى شاعر حسب مكتسباته البيئية، فمن البدهي أن تبدل صورة "نجد" في الشعر العربي على ما نالته من حظوة وإعجاب لدى الشعراء في كل العصور، بين شاعر عاش في نجد ورسم صورتها من خلال تجربته الحياتية، وآخر مرّ بها مروراً عابراً، أو لم يمرّ بها وإنما اقتبس صورتها مما وعته ذاكرته التاريخية والثقافية من خلال ما كُتب عنها، حين أمست هذه الصورة رمزاً للجنة المشتهاة وللجمال الطبيعي الماتع .

وبفضل جمع هذه النصوص عن "نجد" وتصنيفها وقر
"الحنين" للدارسين فرصة متابعتها عبر العصور، ودراسة
التحولات التي طرأت عليها. وقد لا نستطيع أن نقدم عرضاً
وافياً عن جهد الباحث يَغْنِي عن دراسة منهجية موضوعية
للتائج التي توصل إليها .. فمثل هذه الدراسة يتطلب متابعة
واسعة وإغناء لهذه النتائج بمعلومات جغرافية دقيقة تتناول
حياة الإقليم وماطراً على معالمه من تبديل في العمران،
ومادرس من قراه أو تبدلت أسماؤه على مرّ الزمن، وما تغيّر
من طرقه ومسالكه بتأثير التبادل الاقتصادي، وأثر ذلك في
حياة سكانه، والشعر العربي يمدّنا بزيادة كبيرة عن جغرافية
"نجد" لكنه يحتاج إلى دراسة جغرافية تاريخية لأسماء الأماكن
والمواضع التي وردت فيه .

وقد تحتاج البيئة الزمانية إلى دراسة صورة "نجد" في
الشعر العربي وإلى إلمام واسع بما يتصل بتاريخ نجد، وحياة
وأثر شعراء القبائل التي أسهمت في بناء التاريخ وإرساء
تقاليد الشعر العربي . وقد وردت في الأشعار النجدية

إشارات إلى تاريخ نجد وقبائله ووجوه الصراع أو التحالف بينهما وبين القبائل الأخرى والممالك التي أنشأها قبل الإسلام وأثرها في التاريخ الإسلامي في توحيد قبائل العرب وجمع كلمتهم بعد معركة "ذي قار" وفي تحطيم شوكة الممالك المتحالفة مع الروم أو الفرس، والصراعات السياسية والدينية في المنطقة قبل الإسلام وبعده .

وعلى ساحة فن الشعر تحتاج مثل هذه الدراسة إلى البحث عن إسهام "نجد" في دعم تقاليد الشعر العربي، وتعليل أثرها في تقديم النموذج الشعري الكامل للقصيدة العربية ومقدماتها الطللية وأغراضها الشعرية المختلفة، وهو أثر ضارب في القدم يتجاوز عصر "المهلهل وامرئ القيس" ويشهد اكتماله الفني على امتداده في الماضي قروناً طويلة قبل أن يصل إلى الكمال .

ليس ذلك كله من طموح في هذا العرض العابر، مثلما لم يكن - كما أعتقد - من طموح المصنف نفسه الذي قام بمهمة الجمع والتصنيف وهي أول خطوة في طريق التحقيق

العلمي والدراسة الأدبية الموضوعية، وحسي أن أشير إلى بعض الفوائد من عمله والملاحظات التي لمستها في جمع المادة الشعرية عبر العصور المتلاحقة بدءاً من المجلد الأول الذي هو مدار اهتمامي :

[نجد وصورته في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، وعهد بني أمية ومخضرمي الدولتين الأموية والعباسية] .

جمع الباحث المصنّف الشعر الجاهلي الذي ورد فيه ذكر "نجد" نصّاً فبلغت نصوصه (١١) نصّاً احتلت الصفحات (١٧٥-٢٢٨) من المجلد الأول، وبلغت النصوص الشعرية التي تحدثت عن نجد أو أشارت إليها في شعر شعراء مخضرمي الجاهلية والإسلام عشرين نصّاً، احتلت الصفحات (٢٣٣-٣١٦) من المجلد الأول .

وبلغت النصوص الشعرية التي ورد فيها ذكر نجد في قصائد الشعراء الإسلاميين والأمويين (٣٢) نصّاً شعرياً، احتلت الصفحات (٣٢١-٥٤٩) من المجلد الأول .

ويقل عدد النصوص التي تذكر نجداً للشعراء المخضرمين ما بين الدولتين الأموية والعباسية فلا تتجاوز عشرة نصوص، لقصر الفترة الزمنية التي تمثلها هذه المرحلة .

وإن ما يمكن أن يستنتجه الدارس من هذه النصوص :

- ١- قلة عدد نصوص الشعر الجاهلي التي وصلت إلينا عن صورة نجد بالقياس إلى امتداد العصر وضّاع الكثير منها، إذ تحفظ الذاكرة الشعبية الكبار من أعلام هذه المرحلة مثل : امرئ القيس، والأفوه الأودي، وابن العجلان، وعمرو بن كلثوم، وعروة بن الورد، وزهير بن أبي سلمى، وغيرهم.
- ٢- يرد ذكر "نجد" في هذه النصوص خلال مقدمات القصيدة الطللية، ويرتبط بعمودها الشعري في بعض النصوص، أو في قصائد ومقطوعات مستقلة تعبر عن أحاسيس الشاعر نحو نجد وسكانها لشعراء من أبناء نجد أو ممن أقاموا فيها زمناً، ومنهم: امرئ القيس، وعمرو بن كلثوم، وعروة بن الورد، والحارث بن ظالم المري، وزهير بن أبي سلمى الذي أقام في الحاجر من أعمال نجد، وبعضهم من

أصحاب المعلقات التي كانت سائرة بين العرب حفظاً ورواية، ولم تكن صلة هؤلاء بنجد صلة عابرة، فنجد مرآة لشعرهم، وبيئة شعرية رسمت معالم الشعر العربي، لموقعها في قلب الجزيرة العربية، وبعدها عن المؤثرات الوافدة، وسلامة لسانها العربي ونقائه، كما يشير إلى ذلك علماء النحو، وهي وريثة أمجاد و تاريخ طويل من الحكم العربي الذي بدا أكثر استقلالاً وأقل تبعية للأجانب من الممالك التي نشأت على الأطراف، وشعراء نجد كالنابغة الذبياني كان لهم أثر بارز في الدعوة إلى الوحدة العربية، وجمع كلمة العرب قبل الإسلام، فمن البدهي أن يكون شعرهم تعبيراً صادقاً عن الانتماء والنقاء العربي، والمثل والقيم الموروثة، هؤلاء هم الذين أرسوا دعائم الوحدة وهم الذين كتبوا أولى صفحات الشعر العربي الذي بدا أنه الباب المتميز للمباهاة والاعتزاز العربي اعتزت بقية الأمم بمنجزاتها .

وإذا كان الفضل لنجد في إرساء دعائم الشعر العربي، فإن ذلك يعود إلى طبيعة الحياة والبيئة النجدية التي عرفت

الحياة الحضرية المستقرة والبدوية المتنقلة منذ زمن مبكر، وساعدت طبيعتها المعتدلة على التعايش عهداً طويلاً في الاستقرار والخصب والازدهار، لكن الاستقرار والتحول من الحياة الرعوية إلى الحياة الحضرية كان يخالطه لون من التوجس والخوف من أن يفقد الإنسان النجدي في هذه النقلة هويته وانتماءه بعد ضعف العصبية القبلية، فاستمر أبناء "نجد" يرسلون أولادهم إلى البادية ليرتبطوا بجذورهم، ويتدربوا بقيمتها كي لا تفقدهم حياة الاستقرار إرث أجدادهم .

لقد كانت القصيدة الشعرية تعبيراً عن العودة إلى الجذور ودعمًا للانتماء، ومدرسة للأجيال يقتبسون منها قيم الآباء والأجداد، ويطلعون من خلالها على ماضي آبائهم وأجدادهم، وينطلقون بطموحهم إلى المكارم، وارتبط مفهوم الانتماء لدى النجدي بالنزعة القبلية، واتسع على مرّ الزمن فجبر عن التحالفات بين القبائل بعد أن ساعدتها تلك التحالفات على إقامة إمارات وممالك تجاوزت حدود القبيلة

مثل مملكة كِنْدَة، ومملكة زرقاء اليمامة قبلها، وممالك أوردها
 التاريخ وحكمتها نساء كانت لهن الكلمة العليا في المجتمع .
 ويقدم الباحث "الخنين" ستة وعشرين صنفاً من المعاني
 التي تناولها شعراء الجاهلية في نصوصهم، من أصل ستمائة
 وسبعين معنى مختصرة التحليل لمعاني الشعر لإقليم نجد مما
 يتصل بتسميته وموقعه وشهرته ومنزلته بين الإقليم، لم يرد
 منها في النصوص الواردة في (المجلد الأول) سوى إشارتين
 عابرتين إحداهما للعجاج في تسمية إقليم نجد إذ يقول :

ما زال إساد المطايا سداً

ينسلب الليل أنسلا بامسداً

بحيث سمى أهل نجد نجداً

حتى يرى المجلس وأنضى الأجداد

تقلب أخفاف تُدني البعدا

بأرجل ساق نعاماً ربداً

ص (٥٦٩)

* *

فالشاعر يربط بين دلالة نجد المكانية وصلتها
بالفعل (نَجِدَ) بمعنى (عَرِقَ)، وهو نادر لكلمة (نجد) لما يقول
صاحب لسان العرب . فالنجد سمي نجداً لأن مرتقيه يجهد
ليبلغه .

أما الإشارة الثانية فقد وردت في شعر
"امرئ القيس" ص (١٨٣) وفي قوله :
ودون لقاء واديهَا عُمَانُ

ونجرانُ فمهيعُ نجد هاد

إذ يحدد الشاعر فيها طريقاً من طرقات نجد الواسعة
تحديداً عابراً . ولا يعود افتقار هذه النصوص الشعرية
المختارة إلى الشواهد الجغرافية بمقدار ما يوعد إلى المنهج
الذي التزمه "الخنين" على إبعاد كل نص لا ترد فيه كلمة
(نجد) وروداً صريحاً، وكان التزامه ذلك تقييداً للمادة توخياً
للدقة، بينما نلاحظ أن نصوص الشعر الجاهلي حافلة بأسماء
الأماكن والمواضع والقرى والداكر، ولو تسامح الباحث
في منهجه لتوافرت له نصوص كثيرة تناولت جغرافية (نجد).

وأعتقد أن الباحث ظلم "امراً القيس" حين أسقط معلقته، وأغفل ذكر نصوص وردت فيها أماكن جغرافية أثبت الدارسون أنها تقع في "نجد" كتوضيح في قصيدته المشهورة التي يصف بها رحلته إلى بلاد الروم، لأن النص لم يرد فيه صراحة اسم "نجد" مع أنه يشير في ترجمة حياة امرئ القيس إلى أن "ابن بلهيد" في (صحيح الأخبار) أثبت أن هذه المواقع التي ذكرها الشعر تقع في ديار نجد، وحدّد موقعها، وما تسمى به اليوم . ص (١٨١)

ويذكر "باقوت الحموي" في (معجم البلدان) أنه [لم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكروا نجداً، وتشوّقوا إليها الأعراب المتمضرة] ويورد ما يحضره من الأبيات، لكن الباحث المصنف يسقطها لأنها لم تُنسب لقائل معروف، ويستدرك الباحث الدكتور "عبد الكريم القافي" في مقدمته الجميلة للمجموعة، فيسرد أسماء الأماكن النجدية وردت في الشعر العربي الجاهلي في معلقات امرئ القيس وزهير وعنترة، ومواقع أخرى مشهورة ويضيف :

[ولو فكر - أي المصنف - في جمع الأشعار التي وردت فيها أسماء المواضع في نجد لاستفاضت بها دواوين كثيرة] ص (٣٤)

لكن المؤلف "الحنين" له بعض العذر، فهو يدرك عسر مشكلة التحقيق الجغرافي لهذه الأماكن، فالجغرافيون يلتمسون شواهدهم على وجود هذه الأماكن ومعرفة مواقعها من الشعر . وشرّاح الشعر يلتمسونها من الجغرافية والرحالة وقد تبدل أسماء هذه التضاريس على مرّ الزمن ويزول بعضها بحكم التقلبات المناخية ومرور الأيام . ونظل ندور في هذه الحلقة التي لا تقود إلى اليقين حولها إلا بجهد علمي تتقاطع فيه علوم عديدة منها التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا وعلم الآثار . وسبق أن بذل العلامة "حمد الجاسر" جهداً متميزاً في تحقيق ذلك، إضافة إلى أن بعض هذه المعالم والمواقع والتضاريس التي يذكرها الشعر كانت محلّية ومغربة فيها لا يطولها أي علم كأسماء الثنايا

والنجوم والتلال والأودية والداكر والمسالك الفرعية
المتبدلة .

إن جهد المؤلف "الحنين" يساعد على حصر هذه المعالم
النجدية التي جمعها في المجموعة ونسقها في فهرس عام أثر ألا
يتورط به في فصل معالم نجد عن بقية المعالم التي وردت في
الشعر تاركاً هذا العمل للمحققين بالرجوع إلى المسرح
المكاني الذي يتحدث عنه الشاعر وصلته بنجد، وصلة
الشاعر نفسه بنجد .

ونلاحظ أن أكثر ما ترد هذه المعالم في مقدمات القصائد
الطللية فيشيع ذكرها في حديث الشاعر عن رحلته إلى
الممدوح أو في قصائد النسيب وتحديد المواطن التي قطعها
بدوافع من رغبته في إضفاء مشاعره على المكان وساكنيه أو
مجتازيه .

* *

إذا تجاوزنا العصر الجاهلي ومخضرمي صدر الإسلام الذي
بدت حدود المكان في نصوصه المتصلة بنجد محدودة بحركة
الشعراء الجاهليين التي لم تكن تتجاوز قلب الجزيرة العربية
إلا في حالات معينة، نجد شعراء "بني أمية" قد اتسعت لديهم
آفاق الرحلة، كما اتسعت دائرة مسرح الشعر بعد انسياح
القبائل العربية وتوزعها في الأمصار بسبب الفتوح واستقرار
كثير من أبنائها في البلدان المفتوحة، وتنحسر صورة المواقع
النجدية في هذه المرحلة كما في شعر "الكميت الأوسط"
في قصيدة طليية مطلعها :

ألا يا لقوم أرقّت أمّ نُوْفلٍ

وصحي هُجوْدٌ بين غيٍّ وغَرْبٍ

ويذكر مكانه في وادٍ قرب الطائف :

و ليلةً فيها نخلتين طَرَقَتَا

و نحن بُوْجّ ذي أراك و تنضب

فنبهتُ أصحابي فقاموا على الكرى

إلى ساهمات في الأزمة لُغِبِ

ويجدّ بالسير حتى يبلغ صحراء نجد :
 بصحراء من نجد كان رعاها
 رجالٌ قيام في ملاء مُجَوَّبِ
 غداة يقول القوم أكللت وانبرى
 قُوى العيس خمسٌ بعد خمسٍ عصبب
 خليلي من لا يعنه الهم لا يزلُ
 خلياً و من يستحدث الشوق يطرب
 ومن لا يزل يُرجى بغيب إياه
 و ترمي به الأطماع في الهول يُشجب
 ص(٣٠٣)

* *

وكثير ما تقتزن صورة نجد في شعر هؤلاء بتهامة وغورها
 كما في قول "عبد الله بن رواحـه الأنصاري" في قتال
 المشركين :

نُزلهم أكنافَ نجد ونخله
 وإن يتهموا بالخيـل والرّجل تُتهم
 ص(٢٥٣)

وفي زمن بني أمية تعود صورة "نجد" إلى البروز بكل
جلاء بعد استقرار القبائل في مهاجرها، ومن خلال الحنين
إلى مراتبها القديمة، فيتجاوز عدد النصوص التي ورد فيها
ذكر "نجد" مئة وخمسة وعشرين نصاً أكثر شعرائها حيناً إلى
نجد وذكرها لها الشعراء العشاق النجديون، وأبناءؤها الذين
طوّحت بهم الغربة، فماتوا في مهاجرهم وغيوتهم معلقة بثرى
وطنهم، أما القصيدة ذات المقدمات الطللية فقد أصبح ذكر
نجد والحنين إليها تقليداً لدى الشعراء . ويُعد الشاعر
"قيس بن الملوّح" - مجنون ليلى - أكثر الشعراء العشاق ذكراً
لنجد، وقد ورد ذكرها في خمسة عشر نصاً، مقيماً بها أو
نائباً عنها، وهو مولع بذكر مراتبها لكنه مقتصد في ذكر
المواقع والتضاريس . يقول :

سقى الله نجداً من ربيع وصيف

و ماذا يرجّى من ربيع سقى نجداً

بلى إنه قد كان للعين قرّة

و للصحب و الركبان منزلة حمدا

ص.(٣٣٠)

ويقترن حنينه في غربته إلى أرض الحجاز ونجد :
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي
خيّام بنجد دونهما الطرفُ يقصر
و ما نظري من نحو نجد بنافعي
أجل لا و لكني على ذاك أنظر
حنيناً إلى أرض كأن تراها
إذا أمطرت عودٌ ومسكٌ وعنبر
متى يستريح القلب إما مجاور
حزين و إما نازحٌ يتذكر
يقولون كم تجري مدامع عينه
لها الدهر دمعٌ واكفٌ يتحدر
وليس الذي يجري من العين ماءها
ولكنها نفسٌ تذوب و تقطر
ص(٣٣٤)

*

*

كما يذكر من مواقع " نجد البشر " فيقول في قصيدة مشهورة له تنسب أيضاً إلى الشاعر " الصمة القشيري " مع اختلاف في الرواية :

قفا ودعا نجداً ومن حلّ بالحمى
وقلّ لنجد عندنا أن يودّعا
ولما رأيت البشر أعرضَ دوننا
و جالت بنات الشوق يحننُ نَزْعَا
تلقتْ نحو الحي حتى وجدْتُني
وجعتُ من الإصغاء ليتا وأخذعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا
ص(٣٣٦)

* *

ومن شعراء " مجد " الذين برحت بهم الغربة والتشرد الشاعر " القتال العامري الكلابي " ، وفي الحنين إلى نجد يقول :

عَفَّتْ أَجلى من أهلها فقلبيها
إلى الدوم فالرنقاء قفراً كثيبها

إذا هبت الأرواح كان أحبّها
إلىّ التي من نحو نجد هبوبها
وإني ليد عوني إلى طاعة الهوى
كواعبُ أترابُ مراضُ هبوبها
كأن الشفاه الحوَّ منهن واللمى
ذرى برد ينهلُّ عنها غروبها

ص (٣٤٥)

* *

ولشاعر العشق العذري "جميل بثينة" قصائد يحن فيها إلى
حبيبته "بثينة" في تشرده، وقد أهدر السلطان دمه
لتشبيهه بها . يقول :

سقى الله أحبابي الذين تحمّلوا
بمرتجس أضحى بذى الرّمث يهطل
له سالف منه بنجد مُرّيم
ومنه عِشارٌ في هامة بُهّل

ولولا ابنة العذري مابت موهاً

لبرق عنا من نحوها يتهلل

ص(٣٦٩)

* *

وإذا ذكر "بنجد" في أشعار العشاق ذكرت معه "هامة"

وغورها كقول الشاعر "عمر بن أبي ربيعة :

سكن الغور مربعهن حتى

رأين الأرض قد جعلت هيج

وصفن بها فقلن لنا بنجد

من الحر الذي تلقى فروج

كأنهم على البوابة نخل

أمر لها بذى صعب خليج

فما يدري المخبر أي جزع

من الأجزاء يمت الخدوج

ص(٣٩٣)

* *

وقوله :

فإن شئتِ حرّمت النساء سواكم
وإن شئتِ لم أطعم نُقاخاً ولا برداً
وإن شئتِ غرّنا نحوكم ثم لم نزلْ
بمكة حتى تجلسوا قابلاً بجداً

ص(٣٩٥)

* *

ويحب الشاعر عمر نجداً لحبه ساكنها فيقول :
ألا يا حبذا نجد

و من أسكنها أرضاً
وَحَيًّا حبذا ماهم
ولو لي حقدوا البغضا
ومن أجل الهوى أدبي
لمن لم أرضه معضاً
علقتك ناشئاً حتى

رأيت الرأس مبيضاً

ص(٣٩٥)

وَيَخَاطَبُ مَعْشُوقَتَهُ قَائِلاً :

أَرَى مَا يَلِي نَجْداً إِذَا مَا حَلَلْتَهُ

جَمِلاً وَأَهْوَى الْغُورَ فِي أَنْ تَتَّهَمُوا

ص(٣٩٩)

* *

ويعاني الشاعر " الصَّمَّةُ القشيري " النجدي آلام الغربة

ويستبد به الحنين إلى نجد فيقول :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نَيَّْةَ يَوْمٍ قَرَقَرَى

مَفْرُقَةَ الْأَهْوَاءِ شَتَّى شَعُوبَهَا

وَيَوْمًا بِقَرْنٍ قَرْنٍ نَخْلَةٍ رَاجَعْتَ

بِنَفْسِكَ زَفَرَاتٌ بِنَجْدٍ طَيِّبَهَا

وَيَوْمًا لَدَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ تَجَلَّدْتَ

لَكَ النَّفْسُ إِكْرَاهًا عَلَى مَا يَرِيبُهَا

فَيَا أَهْلَ نَجْدٍ لَا شَقِيتُمْ وَلُقِيتُمْ

رُكَابَكُمْ رُشْدًا وَحَلَّتْ ذُنُوبُهَا

فَمَنِي عَلَيْهِمْ فَاقْرَؤُنَّ تَحِيَّةَ

يُخَصَّ بِهَا شَبَانُ قَوْمِي وَشَبَابُهَا

تحية مشتاق إلى أن يراهم

و رجع أمائيل قومي و شيبها

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضكم

أتتنا بريّاكم فطال هبوبها

أتتنا بطيب المسك خالط عنبراً

وريح الخزامى باركتها جنوبها

ص(٤٠٨)

* *

ويصور معاناته حتى يكاد يكفر بوطن آبائه "نجد" الذي

عذبه، ولعله رمّزَ إلى وطنه "العراق" بنجد، فقد كان يسكن

باديتها، لكنه نجدي النسب، وخرج إلى بلاد "الديلم" غازياً

فتوفي فيها . فيقول :

لما الله نجداً كيف يترك ذا الندى

بسخيلاً وحرّ القوم تحسبه عبداً

على أن نجداً قد كساني حلة

إذا ما رأني جاهل ظني وغداً

سواداً وأخلاقاً من الصوف بعدما
أراني بنجد ناعماً لابساً بُرداً
سقى الله نَجداً من ربيع وصيف
وماذا يُرجى من ربيع سقى نَجداً
دعاني من نجد فإن سنيته
لعن بنا شيباً و شيبتنا مُرداً
ص(٤٠٩)

* *

والشاعر "الأخطل" تغلي، يتحدر أجداده من نجد، وفي
مقدمة لقصيدة طلية يقول :
و يأمن عن نجد العقابِ وياسرَت
بنا العيسُ عن عذراء دار بني الشجب
ص(٣٧٨)

* *

ويبدو أنه أراد بنجد هنا مرتفعات الشام وبنجد العقاب
ثنية العقاب المطللة على دمشق، وعذراء : القرية التي تحت
العقبة ومازالت . فالأخطل يرحل إلى الخليفة الممدوح في

دمشق من الجزيرة الفراتية، ويمر بمواقع لا صلة لها بنجد
الحجاز، ومنها في قصيدة أخرى يقول :

طوالع من نجد الرُّحوب كأنما

رمى الآل بالأظعان نخلاً حواملاً

ص(٣٨١)

* *

ونجد في شعر الشاعر "جرير" ابن اليمامة، صاحب
القريجة الفياضة مكانة جعلته والشاعر الفرزدق أتباعاً
للمدرستين النجديتين البدوية والحضرية وكلاهما يتحدر نسباً
من قبائل نجدية استقرت في العراق، لكنه أتباع يعتمد عند
الفرزدق على لغة الصحراء التي لم تصقلها الحاضرة بينما
ينهل "جرير" من فيض الشعر الحضري، وكلاهما يدعي
لنفسه أجماد "نجد" السالفة، ويحاول أن يطرد نقيضه من
ملكوتها ويبرئه من قيمه الموروثة .. يقول جرير مخاطباً
الفرزدق :

ستعلم من أعز حمى بنجد

وأعظمتنا بغائرة هضابا

أعزك بالحجاز وإن تسهل

بغور الأرض تنتهب انتهابا

فلا تجزع فإن بني نمير

كأقوام نفحت لهم ذنابا

شياطين البلاد يخفن زأري

وحية أريحاء لي استجابا

ص(٤٤٤)

* *

ويهجوه "الفرزدق" بأنه كان على قومه كأشأم ثمود

وعاد :

إذا ما اجتدعت أنوف اللثام

عفرت الخدود إلى الجدجد

يغور بأعناقها الفائرون

ويخبطن نجداً مع المنجد

وكان جرير على قومه

كبكر ثمود لها الأنكد

رغا رغبة بمناياهم

فصاروا رماداً مع الرمّدد

ص (٤٧٨)

* *

ومن المؤسف أن يغدو الشعر الذي كان لدى أبناء نجد
سبيلاً لتوحيد العرب في "ذيّ قار"، وتعبيراً عن الانتماء
القومي والوحدة التي تتجاوز القبيلة والحلف وسيلة للتفرقة،
وقد أجاج القائمون على الأمر نار العصبية الجاهلية الرعناء،
وشجعوا القحطانية والعدنانية على معارك شعرية اختلطت
فيها الأنساب، وضاعت صورة نجد الرائعة التي كانت تجمع
ولا تفرق، فنجد هي قلب الجزيرة العربية، والقبائل شرايين
كانت تنهل من هذا القلب دم استمرارها ومركز انتمائها
إلى أن أفست السياسة هذا التوجه . إذ ينفرط عقد الإنتماء
الواحد بتأثير الخلافات السياسية التي وسعت الشقة بين
الاحزاب المتنازعة من موالين للخلافة ومتمشعين وخوارج
وزيديه، لكن الجذور كانت ترد هؤلاء إلى أصولهم النجدية
ومعتقدهم الإسلامي .

ونلاحظ أن الشاعر "الطرماح بن حكيم" المتشيع بنسبه
الطائي النجدي فيقول :

أنا الطرماح فسأل في بني ثعلِ
قومي إذا اختلط التصدير بالحقب
جدي أبو حنبل فاسأل بمنصبه
أزمان أسنى و نفر ابن الأغر أبي
لأمهات جرى في بُضعهن لنا
ماء الكرام رشاداً غير ذي ريب
شمّ العرائن والأحساب من ثعلِ
و من جديلة لا يسجدن للصلب
معاليات عن الأرياف مسكنها
أطراف نجد بأرض الطَّلح والكنب
منا الفوارس والأملاك قد علمت
عُليا معدّ و منا كُلُّ ذي حسب
ص (٥٠٥)

* *

فالشاعر يعتزّ بنسبه البدوي البعيد عن هجنة الأرياف
وبالمعتقد الديني، ويظل الانتساب إلى نجد فوق كل انتماء
منزهاً عن كل طعن . ونلمس هذا الولع بنجد عند
الشعراء المحدثين كالشاعر "بشار بن برد" ممن لا ينتسبون إلى
"نجد" ولا يتحدرون من أصلاب أبنائه، يقول في قصيدة
يصف بها نزوح أحبته من نجد :

أقول إذ ودّعوا نجداً وساكنه

وحالفوا غربةً بالدار فاغربوا

لا غرو إلا حمامٌ في مسكنهم

تدعو هديلاً فيستغري به الطرب

سُقياً لمن ضمّ بطنُ الخيف إنهم

باتوا بأسماء تلك الهمم والأرب

أئن منها إلى الأدنى إذا ذكرت

كما يئن إلى عواده الوصب

ص (٥٨١)

* *

ونلاحظ أن مفهوم "نجد" يتسع ليشمل كل وطن، وقد أصبح رمزاً للانتماء، كما يتسع تأثير الشعر النجدي، فيغدو للأجيال اللاحقة تقليداً يلتزمه شعراء القصائد الطللية والشعراء العشاق .. فإذا تجاوزنا طوبوغرافية نجد وتضاريسه ومعالمه مما أدرجه الباحث "خالد الخنين" في أربعة بنود من كتابه التحليلي إلى مياه نجد ورياحها ونباتاتها ورياحينها وأمطارها وسيولها وغاباتها ورياضها وأزاهيرها وأنغامها وحمامها وحيواناتها، وطيب العيش فيها، فقد توافرت لدينا من المختصر التحليلي الذي وضعه في هذه المعاني معلومات واسعة تتصل ببيئة هذا الإقليم تتناول جوانب الواقع الحضري والصحراوي لنجد، وتطغى فيها الطبيعة البدوية على الطبيعة الحضرية الناعمة في المقدمات الطللية وشواهدا تحتل الصفحات (٢٩١-٤٦٩) من المجلد الأول، وتعزى هذه القلة في شواهد الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي إلى قلة عدد الشعراء بالنسبة إلى العصور اللاحقة، حيث اتسعت دائرة الشعر فيما بعد حتى شملت أقاليم نائية انداح بها

الشعراء خارج حدود الأرض العربية، وتشيع هذه المعاني
لدى الشعراء من أبناء نجد أرومة ونسباً لأنهم أعلم بأرضهم
وأحنّ إلى ثراها، من ذلك حنين "رامة الأسدية" إلى مسقط
رأسها نجد وكانت في "الكوفة" وكرهت سكنى الدور
وصياح الديكة ومواء القطط في العراق .. تقول :

ألا سبيلَ إلى نجد وساكنه

أم لا فنجدُ حبيب الأهل مهجورُ

لقد تبدّلتُ من نجد وساكنه

أرضاً بها الديك يزقو و السنانير

ص(٢١٩)

* *

وفي قصيدة أخرى تقول :

ومن لامي من حب نجد وأهله

فليم على مثل وأوعب جادعه

وصوت مُكاكي تجاوب موهناً

من الليل من برق له فهو سامعه

أحبّ إلينا من فراريج قرية

تراقى و من حيّ تنقّ ضفادعه

ص(٢٢٠)

* *

ويحنّ الشاعر "الكميت الأكبر الأسدي" إلى محبوبته في العراق وهو بنجد فيذكره بها في مغتربه حمام يطير، يتمنى لو ينتقل إليها تحيته ووجده فيقول :

أرى العين مُدّاً لم تلقَ ذيلةً راجعتْ

هواها ولجّت في البكا فهو دأبها

إذا هي حلّت بالفرات ودجلة

و حرّة ليلي دون أهلي و لأبها

فليت حمام الطفّ يرفع حاجباً

إليها ويأتينا بنجد حوابها

ص(٢٤٥)

* *

إن هذه البيئة التي يتحدث عنها الشعر النجدي في مقدمات القصائد تظل دائماً البيئة الأم، بيئة الصحراء

والبداوة والارتحال في مواجهة حياة الاستقرار، سواء كان نجد يقع في الحجاز أو كان ثمة نجد في العراق، فإنه أحب لشعراء النجود من قرى في سواد العراق أو في الإغوار حيث يسوء المناخ وتزدحم القرى ويشعر الإنسان أنه مقيد، فالحنين في جوهره هو إلى البداوة بكل مظاهرها وإلى الانتماء الأصل لعالم الصحراء، وبالمقابل نلاحظ رقة المناخ الحضري في شعر النسيب والحنين الذي يُبرز مناخ الهضاب والنجود الحضري في شعر النسيب والحنين الذي يُبرز مناخ الهضاب والنجود المعتدل، ومن المعروف أن المرتفعات أغزر مطراً وأروح هواء وأرق نسيماً .. وفي ذلك يقول الشاعر "عطارد بن قران " :

طربتَ إلى نجد وما كدتَ تطرب

وهبتَ جنوباً مَسَّها لك مُعْجِبُ

بمانيةٍ يسري بمسكٍ إذا سرت

نَسِيمٌ لها يشفي من الداء طَيِّبُ

ص (٤١٣)

* *

وشعراء النسيب أكثر ذكراً لرياح الصبا والأنسام
والرياض في آكام نجد ومرابعها، فهو منبت الطلح لدى
"ابن الدمينه" وعطر الخزامى لدى "الصمة القشيري"
ونفحات العرار لدى "مجنون ليلى" وهو في بواديه مأوى
للمها لدى "الطرماح" وشجرة مسكن للورق والحمام لدى
"الكميت الأكبر" و " جرير" حيث يقول :

إذ طرب الحمام حمام نجد

نعي جَارَ الأقارع و الحُتات

إذا ما الليل هاج صدى حزيناً

بكي جزعاً عليه إلى الممات

ص(٤٤٨)

* *

وإذا تجاوزنا حديث الشعراء عن البيئة النجدية، وتحولنا
إلى النصوص التي تتحدث عن الإنسان النجدي، لمسنا أن
أكثر المعاني في شعر الجاهليين والإسلاميين وعهد بني أمية
ومحضرمي هذه العصور تُشيد بشمائل أهل نجد ونبلمهم

وأخلاقهم وسلامة عقيدتهم الدينية بعد الإسلام فأهل نجد
لدى الشاعر "الطرماح بن حكيم" أهل منعة .. يقول فيهم :
أنا ابنُ المانعين سنأمنُ نجد

إلى الجبلين بالبيض الخفاف
إلى وادي القرى فرمال خبت
فأمواه الدنا فلوى خفاف
هم تركوا القبائل من معد
لما شأؤوا قليلات العياف
وهم قادوا الجياد علي فوجا
إلى الأعداء كالحدء الهوافي

ص(٥٠٨)

* *

وهم حماة الإسلام والذائدون عن حياضه لدى الشاعر
"عبد الله بن رواحة" يقول :
فأقسمت لا تنفكُ منا كتائب
سراة خميس في لهام مُسوم

نزوع قريشَ الكُفر حتى نُعلِّها
 بخاطمة فوق الأنوف بميسم
 ننزلهم أكناف نجد ونخلة
 وإن يُتهموا بالخيل والرَّجل نُتهم
 ويندم قومٌ لم يُطيعوا محمداً.
 على أمرهم حين تندم

ص(٢٥٣)

* *

وهم أهل شجاعة وحماة البلاد تبعث الاعتزاز لدى
 الشاعر "جرير" :

منعنا بالرماح بياض نجد
 وقتلنا الجبابرة العظاما
 بُجُردٍ كالقدهاح مسوَّمات
 بأيدينا يعارضن السَّماما
 وكم من معشر قُدنا إليهم
 بحرٌ بلادهم لجباً لهما

ص(٤٦٨)

وهم أهل كرم ورصانة في شعر " لبيد العامري " يقول :

لهم مجلس لا يحصرون عن الندى

ولا يزدهيهم جهلٌ من كان جاهلاً

كرام إذا ناب التجار ألذّه

مخاريق لا يرجون للخمر و اغلا

أولئك قومي إن تلاق سرائهم

تجدهم يؤمّون العلا و القواضلا

ص(٢٩٢)

* *

وهكذا يبدو أن " نجد " كان لها التأثير البارز في الغزل والنسيب، وردّ الدارسون هذه الظاهرة إلى عوامل متعددة أبرزها الرغبة في ترسيخ روح الحفاظ والنقاء لدى الأجيال حيث عرفت الصحراء من خلال الغزل العذري ونسبوه إلى عوامل دينية .

ونشأ بتأثير النقلة إلى الحضر، وضعف الروح القبلية التي كانت تضغط على الإنسان العربي، وتحرص على دعم العلاقة بين الرجل والمرأة والحفاظ على العفة وضمان نقاء

الجنس، وترسيخ هذه العلاقة بالزواج، وذهب بعض النقاد لتاريخ الشعر العربي إلى انكار كثير من أخبار العشاق العذرين إلى أن أسماء المحبوبات خيالية وهمية، ورأى بعضهم أن هذه الأسماء رموز سياسية .. وأنكر كثير من النقاد قصص الحب العذري، وردوا شعر الغزل العذري إلى عوامل دينية رسّخت أعراف الجاهلية في الحفاظ على العفة، لكن هذه العوامل -على ما يبدو- العصبية القبلية وحرص القبيلة على سمعتها من أن يمسّها العار حتى لو كان العاشق الشاعر من أبناء القبيلة ذاتها .

ونلاحظ أن للكرم مكانته البارزة في أشعار نجد نلتمس صورته في شخصيات أصبحت أعلاماً له .. أمثال: حاتم الطائي والشاعر "لبيد العامري" الذي يفتخر بكرم أهل نجد فيقول :

وبيضٌ على النيران في كل شتوة
سراً العشاء يزجرون المسابلا

وأعطوا حقوقاً ضمنوها وراثة

عِظام الجفان و الصيام الحوافلا

تُوزَعُ صُرَاد الشمال جفاهم

إذا أصبحت نجد تسوقُ الأفائلا

كرامٌ إذا ناب التجار أُلذَّة

مخاريق لا يرجون للخمر واغلا

أولئك قومي إن تُلاقِ سرائهم

تجدهم يَوْمُون العلا و الفواضلا

ص(٢٩١)

* *

إن الجهد الذي بذله الباحث السعودي الأستاذ
"خالد الخنين" يستحق كل تقدير، فقد ذل العقبات أمام
الدارسين المعنيين بأثر البيئة النجدية في الشعر العربي،
ووضع أمامهم مادة أولية تسمح بمتابعة تطور معاني الشعر
النجدية عبر العصور وتأثيره في التقليد والاتباع الشعري،
وما قدّمه من إسهام غني للشعر العربي .. وستتضح قيمة

وأثر هذا العمل في تطور معاني الشعر العربي في العصور
اللاحقة من خلال احتفائه بنجد وتراثها الشعري .

صورة "نجد" في الشعر
العباسي والفاطمي والأيوبي

صورة " نجد " في الشعر العباسي والفاطمي والأيوبي

- ٣ -

لقد أصبحت القصيدة النجدية التي أرسى نهجها شعراء
نجد منذ عصر امرئ القيس، وربما قبله .. بينما لم يصل إلينا
من الشعر إلا نماذج لشعراء المديح والغزل، كما ظهر أثر
البيئة النجدية في طابعها البدوي والحضري، وإنسان نجد بما
يحمل من نقاء لغوي وصفاء خلقي في رسم معالم المثل العليا
والدعوة لتأثيلها عبر الزمان والمكان .

(*) - نجد وأصداء مفاته في الشعر .. للباحث السعودي: خالد محمد الحنين الجزء الثاني ..
منشورات " دار ابن حزم .. بيروت - لبنان .

هذا الوسط النقي الذي أفرز الشعر العربي ظلّ بعيداً عن المؤثرات الخارجية لموقع نجد في قلب الجزيرة العربية، فصان قيم الصحراء ولغتها من الانحدار والتردي، فكان على مرّ العصور المثل الأعلى للشاعر في الفصاحة والبيان، والقيم السامية للإنسان والمجتمع العربي في العفة والنقاء والنبل، وعزّز الإسلام بقيمه ومثله هذه الصورة فزادها صفاء وإشراقاً .

لقد احتفظ الشعر العربي بصورة نجد ناصعة الجبين حتى عند الشعراء الذين لم يقيموا بنجد أو تشدهم الروابط إلى أنساب قبائلها، وحتى الشعراء الذين هم من أصول غير عربية، فكان لهم أن يبرزوا صورة نجد في شعرهم، وينهجوا طريق السلف في تقليدهم تعبيراً عن مشاعر الحب وترسيخاً للقيم الاجتماعية المحمودة، وإثباتاً أن الشاعر يستطيع إظهار موهبته .

وعلى الرغم من ثورة بعض شعراء العصر العباسي على
المقدمات الطللية كالشاعر " أبي نواس " الذي كان يطمح
أن يحرر الشعر من تقاليد القصيدة النجدية وهو القائل :

قل لمن يبكي على رسم درس

واقفاً ماضراً لو كان جلس

* *

إن قوة التقليد، واكتمال المنهج الشعري للقصيدة
النجدية واستجابتها لحاجات المجتمع العربي الإسلامي لم
تزحزح سيطرة الشعر النجدي وتقاليده، ولم تنل منه إلا ما
اعتراه من تغيير طفيف في تفاصيل هذه الصورة بسبب
ابتعاده عن حياة البداوة، وعن جزالة الشعر وفصاحته لدى
السلف، فلانت لغته في مقدمات قصائد المديح الطللية،
وسقطت منه تفاصيل صغيرة تتعلق بحياة الصحراء ومشاهد
الصيد والصراع الذي كان يتم بين الحيوانات والإنسان .

كما تجاوز بعض شعر الغزل التقليدي طابعه العفيف،
وغدا أكثر حساً وأصرح تعبيراً عن المشاعر الجنسية .

كان للحياة السياسية والاجتماعية أثرهما في تعديل صورة نجد في العصر العباسي وما تلاه من عصور، فالدولة العباسية خضعت لمؤثرات فارسية، لأنها قامت بمساندة الفرس، ولأن عاصمتها "بغداد" ركن الخلافة، تجاور بلاد فارس، كما دخلت في تكوين الدولة عناصر أخرى امتزجت بالعرب من "تركية وسريانية ورومية"، وفرض الاحتكاك مع هذه العناصر نتائج لغوية وثقافية وفنية، فضاغت الاتصال بالصحراء، كما ضعفت الروح القبلية بعد تفرق أبناء القبائل في الأمصار، وألفوا حياة الترف التي وفرها لهم المدينة من مطعم وملبس ورياش وترف وهو وغناء، وانعكس ذلك كله على الشعر والأدب، لكن ذلك التأثير لم يزحزح القصيدة النجدية عن موقعها في الأدب الذي يتوجه بالمديح إلى الخلفاء، وإن ظهر تأثيره جلياً في أدب المباسطات والمناسبات والمقطوعات القصيرة التي تصلح للغناء والتي تعبر عن الحياة اللاهية، ولا سيما قصائد شعراء البلاط ممن قربهم الخلفاء، ورأوا في المدائح التقليدية تهيئة لمكانتهم السياسية وترسيخاً

للهوية بسماتها الموروثة وقيمها التي تصون المجتمع من
التردي..

ونلاحظ أن المختارات التي قدمها الباحث السعودي
"خالد الحنين" في المجموعة الثانية تعزز هذه الظاهرة وتثبت
أن صورة نجد في الشعر العربي ظلت نهجاً يترسمه شعراء
الغزل والمديح في مقدمات قصائد شعراء ذلك العصر
الأعلام.

ويتضح لنا من مقارنة النصوص التي تناول صورة نجد
في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي بالنصوص التي
تناولها في العصر العباسي، أن هذه الصورة ظلّت راسخة في
تقاليد الشعر العربي، كما يتضح في الجدول التالي :

عدد النصوص التي احتذت السلف في رسم الصورة
النجدية .

في العصر الجاهلي	جاهلي	إسلامي ومخضرم	أموي	مخضرم	المجموع
والأموي وصدر الإسلام	١١	٢٠	٣٤	١٠	٧٥
في العصر العباسي	عباسي	مخضرم	فاطمي ومخضرم	أيوبي ومخضرم	
والعصر اللاحق	١٦	٣	٢٩	١٤	٦٢

وتكاد صورة نجد تكون عابرة في بعض النصوص، لا
تعكس سوى وفاء الشاعر لنجد وتقديره لها .. كما في قول
"هارون الرشيد" يرثي جاريته "هيلانة"
والله لا أنساك ما حركت

ريح بأعلى نجد أغصانا

ص(١٢)

* *

كما نلاحظ تفاوتاً في مفهوم نجد في بعضها بين أن
يقصد الشاعر ذلك الإقليم في الحجاز أو أي مرتفع يحنّ إليه
الشاعر . وصورة نجد تحتل أبعادها الكاملة لدى شعراء

العصر العباسي ممن تربطهم بنجد صلة النسب والانتماء القبلي، فهؤلاء الحفدة ظلوا يحتفظون عن آبائهم وأجدادهم اعتزازهم بالنسب ويتابعونه في التاريخ والأدب، ولكن الشاعر "أشجع السُّلَمي" الذي يتحدر نسبه إلى بني سليم "إحدى القبائل النجدية لا يعكس ملامح الصورة النجدية الغنية، فلا يتغنى إلا بطيب نسيم نجد، ومعاناة عشاقها العذريين، يقول في مقدمة قصيدة يمدح بها "يحيى بن جعفر البرمكي" :

أبا لشام تبكي مَنْ بنجد منازلُه

و تندب ربعاً قد تفرَّقَ آهلُه

تميل إلى من لا يباليك إن نأى

وأنت إليه هائمُ القلب مائله

ص(١٦)

* *

و يظهر التقليد جلياً في شعر "علي بن جبلة العكوك"

الذي يقف على الأطلال، ويتغزل بنجد في مقدمات قصائد،

وهو الشاعر الكفيف الذي لم يعرف نجداً إلا من خلال ثقافته الشعرية . يقول :

هل بالطلول لسائل ردُّ

أم هل لها بتكلم عهدُ

دَرسَ الجديد جديدُ معهدِها

فكأنما هي رِيطَةٌ جرُد

فوقفت أسألُها وليس بها

إلا المها و نقائقُ رُبِد

لهفي على دعدٍ وما خلقت

إلا لأجل تلهّفي دعد

إن تتهمي فتهماة وطني

أو تُنجدي إنَّ الهوى نجد

ص(٢٣)

* *

وتبرز صورة نجد جليلة لدى الشاعر " أبو تمام الطائي " مع أنه لم يكن نجدياً نسبياً، وإنما انتسب أبوه إلى " طيء " وكان يونانياً اسمه " ثيوداوس "، لكن ثقافة أبي تمام الشعرية الواسعة

وحماسته لنسبه النجدي بالولاء دفعته إلى رسم صورة نجد
وتقاليدها الشعرية بوضوح في كثير من مقدمات قصائده
الموحية، ويشير إلى فصاحة أهل نجد، فيقول في بعض
مدوحيه :

ومن شك أن الجود والبأس فيهم
كمن شك في أن الفصاحة في نجد
وفي قصيدة أخرى يفتتحها بالغزل التقليدي، يحن إلى
أحبته في نجد ويرسم كلفه وعذابه بتمنع الحبيب فيقول :
شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدي
ومحّت كما تحّت وشائع من بُردٍ
وأنجذتم من بعد إتهام داركم
فيا دمعُ أنجدي على ساكني نجد
لعمري لقد أخلقتم جدة البكا
بكاء وجددتم به خلق الوجد

ص(٣٣)

* *

ويفتخر ببلاء قبيلته "طيء" ويعتز بشجاعة قومه
وكرمهم، فيقول :

جرى حاتم في حلبة منه لو جرى
بها القطر شأواً قيل أيهما القطرُ
ففي ذخر الدنيا أناسٌ ولم يزل
لها باذلاً فانظر لمن بقي الذُخر
جَمَعنا العُلَى بالجود بعد افتراقها

إلينا كما الأيام يجمعها الشهر
بنجدتنا أَلَقْتَ بنجد بعاعها

سحاب المنايا وهي مظلمة كُدر
بكلِّ كَمِيٍّ نحرُه غرض القنا

إذا اضطمر الأحشاء وانتفخ السحر
فأعجِبْ به يهدي إلى الموت نحره

وأعجِبْ منه كيف يبقى له نحر

ص(٣٥)

* *

ويشير في قصيدة إلى التبدل الذي طرأ على حياة النجديين
بفضل كرم ممدوحه، حتى تُعد صحراء نجد تنبت الشيع
والقيصوم .. ويحجّن الشاعر "مروان بن يحيى أبو السمط"
إلى مراتع أحبته في نجد، وعاش في بغداد . يقول :

سقى الله نجداً والسلام على نجدٍ
و يا حبذا نجدٌ على النأي والبعدِ
نظرت إلى نجد وبغدادُ دوماً
لعلّي أرى نجداً و هيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتي
ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي

ص(٥٢)

* *

وقد تحدّرت إليه صورة نجد من أبيه الشاعر "مروان بن
أبي حفصة" من الموروث الشعري العريق الذي نقله عن أبيه،
فأصبح تقليداً راسخاً مصدره الثقافة الشعرية لا الإقامة
بنجد.

.. ونلاحظ أن أكثر الشعراء احتفاء بصورة نجد في الشعر هم الذين يتحدرون نسباً من نجد .. وإذا كان هؤلاء الشعراء يملكون الدوافع الذاتية لإبراز صورة نجد في شعرهم، فإن شعراء آخرين ينتسبون إلى الفرس والكرد لم يكونوا أقل احتفاء بإبراز هذه الصورة وتعميقها . وهؤلاء الشعراء بدوا أحرص على التزام تقاليد الشعر النجدي ليثبتوا خلالها انتماءهم الثقافي والشعري للعرب والعروبة . ولعل العامل الديني كان له أثره في الاحتفاء بصورة نجد لديهم إذ اتسعت هذه الصورة النجدية لتعبر عن حنين هؤلاء الشعراء للحجاز الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية، واصطبغت معالمه بلون من التقديس والإجلال، إذ اندمجت صورة نجد التقليدية بصورة الحجاز الإسلامية وقدسيته لدى المسلمين . وتجلى ذلك بوضوح لدى الشعراء المتصوفة، فلم يعد الحنين إلى نجد حنيناً إلى المحبوبة وتراب نجد، بل أمسى حنيناً إلى مناهل الدين الإسلامي، فأمست المحبوبة رمزاً للاتحاد المطلق لدى المتصوفين الذين نادوا بوحدة الوجود مثل الشعراء :

ابن الفارض، ومحيي الدين بن عربي، والسهرووردي، وغيرهم، وكان غزل هؤلاء روحياً دينياً يتنزّه عن المادة، وإن كان يتخذ طابع الغزل العفيف النجدي .

وساعد الغناء على تثبيت صورة نجد في التراث الشعري العباسي، فكان للجوّاري أثر في اختيار مقطوعات للغناء من تراث الغزل النجدي العفيف، ويحفظن منه كثيراً من القصائد التي تصلح للغناء .

وعلى الرغم من أثر السريّات والجوّاري في تدنّي مستوى الحب العذري، وانحدار مكانة المرأة، فإنهن أسهمن في الحفاظ على التراث النجدي في دنيا الغناء والطرب، ولا سيما ما يتصل منه ببيئة نجد مثل ذكر "عود الأراك" الذي أصبح سواكاً لعلّية القوم يتغنّون بطيب نكهته وعذوبة رائحته .

نقل الأراك بأن ريقة ثغره

من قهوة مزجت بماء الكوثر

* *

لقد كان المجتمع العربي الإسلامي أحوج إلى تثبيت صورة الحب النجدي العفيف في أذهان الناس من خلال الشعر، وأكثر تمسكاً به لمواجهة هذا التردّي والحفاظ على القيم، ونلاحظ ذلك في شعر الشعراء الملوك والأعيان القائمين على شؤونهم، مثل: ابن المعتز، والملوك الصالح "طلّاع رُزيك" الذي يفتح إحدى قصائده في ذكرى أيامه بنجد، فيقول :

يا صاحبيّ بجرعاء الغوير قفا
نجد لمن بان بالدمع الذي و كفا
ليست دموعاً من الأجفان سائلة
لكنها أنفـس ذابت بهم أسفا
بمهجتي بدرتم لو بطلعته
ليلاً أشافه بدر التّم لا نكسفا
في لحظة دنف أودى به جسدي
فصرتُ من فرط حيي أعشق الدنفا

ص (٤٤٨)

* *

لكن صورة نجد النقية والصافية المسيطرة على قصائد
الشعر الموزونة حاول بعض الشعراء التحرر منها عبثاً، ويثور
عليها تلبية لنزعاته الحسّية، فقد نلمس في شعر
"فتيان الشاغوري" مسعى ليحلّ صورة الشام التي عاش فيها
مكان صورة نجد، لكنه لم يفلح في التحرر منها في أكثر
نصوصه.. يقول :

دع الحمى وليالي الضال والعلم
وعدّ عن ذكر أيام على إضم
و لا تقل حبذا نجد و ساكنه
و لا تعرّج على سلمى بذي سلم
من كل مرتجّة الأرداف لينة الـ
أعطاف ممدوحة الأخلاق والشيم
تُريك من وجهها والفرع حاسرة
قناعها الشمس في داج من الظلم

ص(٥٣٣)

* *

فهو يستعيز عن ذكر نجد بالتغزل بالتركيات
والعجميات، كما يستعيز عن الغزل العفيف بوصف
المحبة فيتناول مفاتن جسدها بأسلوب صريح . ومع أنه
شاعر أسدي الأرومة فإنه يجهد في أن يرحل صورة نجد ..
فيقول متغزلاً بحمال دمشق مدافعاً عن مذهبه في اللهو :

هذي الرياض وأنفاس الرياحين

تحت الفياض وهذا جسر جسرين

قم يا نديمي اسقني حمراء صافية

كانت لكسرى أتت من عند شيرين

من كفّ مُرتجّة الأطراف لينة الـ

أعطاف باللحظ تسقيني و تسبيني

إني إلى وصلها عينُ الفقير فإن

تَعَنِّي بقريضي فهي تغنيني

وإني لأصلي الخمس مجتهداً

و لن تصدّقني الصهباء عن ديني

فَقَدْ يَا صَاحٍ عَنِ نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ
 وَرَمَلَ حُزْوَى وَعَنْ أَثْلَاطٍ يَبْرِينِ
 وَعُجْجٌ عَلَى عَذَابَاتِ النَّيِّرَيْنِ ضَحَى
 وَحَيَّهَا مَنْشِدُ قَلْبِي بِقَلْبَيْنِ
 ص (٥٣٩)

* * *

لكن الشاعر "فتيان الشاغوري" لم يستطع أن يتحرر من صورة "نجد" التراثية، فقد يتخذها إطاراً لحنيه وغزله، حتى لو حاول التخلص منها فلم يفلح في إحلال غوطة دمشق محل البيئة النجدية التي أصبح الحنين إليها تقليداً عريقاً يمتد ستة قرون، ويحاول أيضاً الشاعر "مهيار الديلمي" وهو فارسي أن يطمس جغرافية "نجد" في المكان، فيجعلها رمزاً لكل حبيب ينأى عن حبيبه، ولحاجات في النفس وأمنيات يشتهي الشاعر تحقيقها، يقول :

هل نجدٌ إلا متراً مفارقُ

و وطنٌ في غيره يُقضى الوطرُ

وحاجة كامنة بين الحشا

و الصدر إن ينبض لها البرق يُنرّ

ص(٢٦٠)

* *

إذا عدنا إلى معاني الصورة النجدية في الشعر الذي صنّفه الباحث "خالد الحنين"، واختصرنا هذه المعاني في عناوين أساسية منها الحنين إلى نجد، ووصف البيئة المكانية، وتخليد قيم الإنسان المحبّ العنيف، والشجاع الماجد، والكرم المعطاء، ورسم البيئة الزمانية لنجد التي تطل على تاريخها وحياة القبائل فيها، نرى أن شعراء العصر العباسي وماتلاه من عصور متأخرة يرسمون خطأ السلف في رسم معالم الصورة النجدية، ففي البيئة المكانية، يظل نسيم نجد الرّخي يحرك إلهام الشعراء ويثير حنينهم، يقول الشاعر "أشجع السلمي :

يذكرني نجداً وطيبَ عراصها

على ظمإٍ بردُ الرياح النواسم

ص(١٥)

ويجاريه الشاعر "أبو تمام الطائي" في وصف رياح نجد
التي تعصف فلا تصيب إلا أضخم الأشجار، شأنها مرثيته
التي استهدفه الموت لعظمته . يقول :

إن الرياح إذا ما أعصفتُ قصفت
عيدانَ نجد ولم يعبانَ بالرَّم

* *

ويستروح الشاعر "ابن الرومي" نفحات نجد فيقول :

ألا يا حبذا نفحاتِ نجدٍ
ومن أمسى بمنعرج الصعيدِ
ومن أخشى إذا مازرتُ منه
صدوداً ومنية في الصدود

ص(٧٦)

* *

وتحمل ريح "نجد" خيال المحبوبة للشاعر "البحثري"
فيجعل خيال المحبوبة محمولاً على نسيم نجد تشرق به
الأرض، وتمطر به السحب .. يقول :

بت أبدي وجداً وأكتم وجداً
لخيال قد بات لي منك يُهدى
خطأ ما أزرناه طروقاً
أم توخيه للزيارة عمداً
جاء يسري فأشرفت أرض نجد
لسراه وواصل الغيث نجداً

ص(٨٥)

ونلاحظ أن ريح نجد لدى الشاعر "أبي الحسن التهامي"
تحمل للمحب سعي الجوى على بردها يقول :
وتدّعي بصبا نجد فإن خطرت
كانت جوي لك دون الناس كلهم
وكيف تطغي صبا بنجد صبايته
و الريح زائدة في كل مضطرم

ص(١٧٨)

وتهيج ريح الشمال بنجد للشاعر "بديع الزمان الهمداني"
فيحن إليه :

طربت وهاجتي شمالٌ بليلةٌ

وجدت لمسراها على كبدي برداً

ويا حبذا نجدُ وبردُ أصله

وعيشاً تركناه بساحته رغداً

ص (١٨٨)

* * *

وتقترن صورة الريح النجدية بالرق والمطر والرعد

وامتداد الخصب فوق ثراه، كما في صورة المطر النجدي

التي يرسمها الشاعر "السري الرّقاء" فيقول :

أيها البرق إن وجدت غماماً

فاسق نجداً به ومن حلّ نجداً

بجد يد الشؤبوب يصبح منه

خلق الرّوض ناضراً مستجداً

و كأن الوميض ينشر نوراً

في أعاليه أو يُفوّفُ برداً

ص (١٣٠)

ومن معالم الصورة النجدية نبات نجد ومنه الشيخ
والقيصوم في الصحراء والأراك والبان والرند، وقد وصفه
الشاعر :

يا عاذلاً في ظهرنا ..

جية كما دُعر الظليم

البان من نجد فلي

وجدٌ بساكنه قدم

وعلى النقا إما مرر

تَ بذِي النقا ظي رحيم

للَّهِ رونقه وقد

مالت إلى الغرب النجوم

والروض بصقله الندى

و هنا ويرقطه النسيم

و قد انتشى خوط الأرا

كة والحمام له ندم

و الزهر يضحك في حما
ثلة إذا بكت الغيوم
هو منزل الإحسان لا
نزلت بساحته الهموم

ص(٤٨٦)

* *

وإذا تجاوزنا بيئة "نجد" المكانية إلى صورة الإنسان
النجدي بدا لنا بعض التحوّل في الوفاء لمحبة واحدة لدى
شعراء العصر العباسي، ومع أن الشاعر "أبا تمام" مازال وفياً
للمحبة الواحدة في قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

مالحب إلا للحبيب الأول

فإن تحول المحب بدأ يتخذ طريقاً لدى العصر العباسي
كقول الشاعر " أحمد بن أبي منن " :

أتراني أقعد الليل لها

ساهرأ أطلب وصلاً قد هلك

وهي فيما تشتهي لاهية

مِتَّ إن دار بهذين فلك

كان للناس وفاء مرة

فانقضى وانحلت اليوم التلك

* *

ونلاحظ في الشعر العباسي قلة وقائع التاريخ النجدي،
إلا ماورد في الفخر والهجاء، فإذا في النفوس صراع القبائل
وأيامها التاريخية . ولا نلاحظ ذلك إلا لدى الشعراء العرب
أصولاً، أما الشعراء الذين هم من أصول أعجمية فلا يعنون
بيئة نجد الزمانية، إذ لا ماضي لهم فيها ولا ارتباط بتاريخها
من ذلك قول الشاعر "البحثري" الذي يفخر بقبيلته "طيء"
وهو أحد أبنائها ..

لكن أبرز تطور طراً على مفهوم الحب الإنساني الذي
احتضنته نجد خلال سير عشاقها . حيث تحول هذا المفهوم
لدى شعراء المتصوفة إلى فلسفة دينية ترقى به من حب
دنوي يتجسد بلقاء روحين إلى حب سماوي تعبر عنه تلك

العلاقة التي تؤلف بين الأرواح، فما "هند و زينب وأمينة"
اللواتي يتغزل بهن الشعراء سوى رموز للاتحاد بالمطلق
ووحدة الوجود التي تؤلف بين عناصره محبة أسمى هي ذلك
الفيض الإلهي من الحب نحو الكائنات بمصدرها الأزلي خالق
الكون والسماء .

يقول الشاعر "ابن الفارض" كاشفاً سرّ الصورة النجدية
في الحب والصوفي :

و متى ما سرّ نجد عبرت
عبرت عن سر ميّ و أمي
ما حديثي بحديث كم سرت
فأسرّت لنيّ من نبيّ
عُتِبُ لم تُعْتَبُ وسلمي أسلمت
وحمي أهل الحمى رؤية ريّ
والتي يعنو لها البدر سبت
عنوةً روحي ومالي وحمي

ص(٦٢٨)

* *

وهكذا غدت صورة العشق النجدي تجلياً روحانياً لهؤلاء
المتصوفة ولعلمهم كانوا أكثر إدراكاً لأبعادها وغاياتها من
الشعراء الآخرين الذين شوّهوا صورتها بنزولهم بها من سماء
العفة والترفع إلى مواطن اللذة والشهوة .

وقد نلمس أن صورة نجد في أزهى عصور الشعر العربي،
وأحفلها بالعطاء ظلت راسخة ولم تهتز إلا بقدر ما فرض
عليها تطور الحياة، وظل مدارها دائماً طلب الجمال وتوجيه
المجتمع إلى الحق والخير، وربما تبدلت وسائل التعبير عنها
فأثقلتها الصنعة والمجاز لكنها ظلت تعبيراً عن اللامحدود
بالمحدود، وتحطمت على صخرتها محاولات الشعراء الذين
حاولوا الخروج عليها، لأنها أصدق تعبيراً عن قيم الإنسان
وذوقه، لكن التقليد النجدي لم يصمد طويلاً أمام حركة
التغيير المتسارعة وانحدار المجد العربي في العصور اللاحقة
وتحوّل الملك عنهم، إذ انتشر ذلك التقليد في العهد العثماني،
وجفت منابع الإلهام لدى الشعراء .

صورة نجد ومفاته في الشعر
الأندلسي والعثماني وعصر النهضة

صورة نجد ومفاته في الشعر الأندلسي والعثماني وعصر النهضة -٣-

تتوزع النصوص الشعرية في المجلد الثالث من كتاب
(نجد وأصداء مفاته في الشعر) للباحث السعودي " خالد
محمد الخنين " بين شعراء مخضرمين من العصرين الأيوبي
والمملوكي . فالشعر الأندلسي والشعر في العهد العثماني،
والشعر في العصر الحديث .

ويتضح من عدد النصوص في هذه العصور، وما أشارت
إليه من تجليات صورة نجد في الشعر العربي مدى ارتباط كل

عصر بالتراث الشعري ودواعي هذا الارتباط كما يتبين في
الجدول التالي :

عدد النصوص الشعرية التي تناولت الصورة النجدية	
٥	مخضرمو الدولتين الأيوبية والمملوكية
٦	شعراء العصر المملوكي
٣٤	شعراء الأندلس
١٥	شعراء العهد العثماني ومخضرموه
١٨	شعراء عصر النهضة
٧٨	المجموع

ونلاحظ من تحليل هذ الجدول ظواهر عدة أهمها :

١- طغيان صورة نجد لدى شعراء الأندلس، ويمكن
تعليل ذلك الاهتمام من الأندلسيين بصورة نجد عوامل
عديدة، أبرزها أن شعراء الأندلس هم من العرب، ومن
أصول القبائل العربية التي ترحت إلى بلاد الأندلس بعد الفتح
الإسلامي، وقلة من هؤلاء الشعراء من لا يتحدر من نسب
عربي، ذلك أن الشعر العربي في الأندلس ظل وفقاً على أبناء

القبائل المهاجرة، ولم يعرف شاعر أندلسي من سكان
الإسبان، لأن الاحتكاك بين العرب المهاجرين والإسبان لم
ينجح في إزالة العوائق اللغوية، فظلت الثقافة الشعرية تدور
في فلك العرب المهاجرين وأبنائهم، ونُدّر أن يكون بين
الشعراء الأندلسيين مَنْ أصل بربري مثل: " ابن عبد المؤمن"،
وأكثر القبائل التي ينتسب إليها شعراء الأندلس والمغرب
نزحت مرتين، في هجرتها الأولى استقرت في أقاليم شرقية
عربية، ثم انتقلت بعد الفتح إلى المغرب والأندلس من سوريا
والعراق، واحتفظ أبناء تلك القبائل بتراثهم الشعري
وبصورة نجد فيه . وأن شعراء الأندلس قادهم تعلقهم
بالوطن العربي إلى النهج العربي في بعض صورهم العربية .
ولعل من أبرز هذه العوامل أن الشعر الأندلسي لطبيعة
البلاد كان شعر غناء وغزل وتعبيراً عن الغربة بما يلي مشاعر
الشعراء في الحنين والحب ووصف الطبيعة .

٢- الظاهرة الثانية هي قلة النصوص التي تتناول الصورة
النجدية في الشعر زمن العصر العثماني قياساً إلى امتداد هذا

الزمن الذي استمر خمسة قرون، ويمكن تعليل ذلك العزوف
بانحدار الشعر، وعدم تشجيع الشعراء، وعزوف العثمانيين
عن تبني ثقافته الشعرية العربية .

٣- الظاهرة الثالثة هي انحدار صورة نجد في شعر العصر
الحديث بعد عهد النهضة، فقد تحول الشعر إلى
معالجة القضايا الاجتماعية والوطنية والقومية وانحسار الشعر
الوجداني الذي تشكل صورة نجد الشعرية أساساً له . فبدأ
في هذه المرحلة لوناً من التقليد والاتباع، أو حيناً مقدساً إلى
الحجاز منبع القصيدة الدينية، ولا تلبث صورة نجد أن تغيب
في الشعر الحديث غياباً تاماً بسبب توجه الشعر إلى التعبير
عن " أنا " الشاعر الفردية أو الجماعية متحلاً من الأعراف
الشعرية الموروثة، وتقاليد القصيدة النجدية في المديح الذي
قلَّ شأنه .

٤- الظاهرة الرابعة في الصورة النجدية جهل مخضرمي
العهدين المملوكي والأيوبي، يظهر فيها بوضوح اضطراب
معالم هذه الصورة واختزالها، فهي لا تحتفظ من معانيها إلا

نسيم نجد الذي يحمل خيال المحبوبة سارياً، دون أن يفضل
الشاعر رحلته إلى ديار المعشوقة فخيالها أو عطرها هو الذي
يرحل إليه.. كما نلمس ذلك لدى الشاعر "ابن زريق"
و غادة ممشوقة القَدَّ

خـيـودها تـهـزأ بالوردِ
تنضاع عن مسك آتته لنا
لما سرت وهناً صَبَاً نجد

ص(١١)

* *

وتختزل الصورة حتى تقتصر على الاعتزاز بانتماء المحبوبة
إلى أصلها النجدي العريق، إذ يسألها الشاعر :
من أين أقبلتِ أيا قرّة الـ...عينين ذات الفخار والمجد
قالت ديارى ويك شاسعة

تحمي أراضيتها بنو الأزد
سريت إذ ناموا على ناقة

تطوي سجل اليأس والبعد

ص(١١)

ويزيد هذه الصورة اضطراباً إغراق الشاعر في مشاعره
بالغزل الذي يخلو من العفة التي اتسم بها الغزل النجدي . :
تُعَلِّي ريقاً إذا ذقته

كالمسك منه الطعم كالشُّهد
سكرتُ من فيها ومن لفظها
سُكراً أَمال القلب للرشد

ص(١٢)

* *

ويحتفظ الشاعر "ابن دقيق العيد" المصري بتفصيلات
الرحيل إلى نجد وما يعانیه الحب من مشقة السفر إلى المحبوبة:
لم يثنهم طول الطريق لهم ولا

عدم الرفيق ولا نفاذ الزادِ
سَقَّتْهُمْ أَمْنِ النعاس جفونهم
كأْساً تميلهم على الأعواد
وتكاد أنفسهم تفيض وتختي

بنسيم نجد أو غناء الحادي

طيب الحياة" بنجد" إلا أنه

من دون ذاك تفتت الأكباد

ص(٢٩)

* *

فرحلته إلى نجد وتفاصيلها صورة ناعمة للرحلة البدوية
القديمة ليس فيها توغر لغوي بل سيولة وتدفق وشاعرية
لطيفة وحنين إلى الوطن والحمى، وقد عاش الشاعر في
"ينبع" زمناً، فكان حنينه وتعلقه بالحجاز صادقاً صادراً عن
معاناة .. يقول :

وللعيش آمال بليلي تعلقت

أخاف المنايا قبل كوني أنالها

يقربُ لي من وصلها حسن لطفلها

ويُبعدُها استغناؤها ودلالها

فبادر إلى نجد ولذُ بنسيمها

و بردِ جناها ثم طيب ظلالها

ص(٣٢)

* *

أما الشاعر "الشاب الظريف" المعروف بإحساسه بالغربة
 فلم يعيش بنجد لكن اتخذها رمزاً لوطن محبوبته .. فيقول :
 يا أهل نجد على هوائي
 سَدَدْتُمْ سائر الجهات
 واعجبا ترتضون قتلي
 و أنتم في الهوى حياتي

ص(٤١)

* *

ويرفض الشاعر "ابن دانيال الموصللي" وهو خزاعي الأصل
 صورةً بنجد التي تعلق بها السلف، فلا يرى في عالم البداوة
 سوى الخشونة، كما يرفض التغزل بالمرأة لما عانى من
 زوجته:

لي شُغْل عن ذكر لُبْنى و ذكر هند
 و نوار أو الرباب و دعدِ
 فاطو عني حديث طيٍّ ودعني
 من كثيب اللوى و أكناف نجد

وطلول قد أقفرت من أناس

كالشياطين إن بدت عن بُعد

زوجه في النقار ديك ولكنّ

لها في النساء صورة قرد

لكمتني بيطن راحتها في

ظهر خلقي وأصبحت تستعدي

ص (٤٧)

* *

أما الشاعر "ابن الوردي" فكان هواه صريحاً، فلا يجد
مسوغاً للثورية بنجد، ففي ذلك لون من المنطق الذي يلجأ
إليه علماء الكلام .. يقول :

أغار على أهل الغوير لأجلها

وأحجم عن سلع ووصف ربا بنجد

وأنفر عن علم الكلام لثغرها

لئلا أوري عنه بالجواهر الفرد

ص (٥٢)

* *

وتتحول صورة نجد لدى الشاعر "صفيّ الدين الحلّي" من
تغزل بالمحبوبة إلى حنينه لمربع الرسالة النبوية، ومدح الرسول
الكرّم(ص)، ويعمد إلى المحسنات البديعية . يقول :

نساهم شطر العيش عيساً سواهما
لفرط الشرى لم يبق إلا شُطورها
حروفاً كنونات الصحائف أصبحت
تخطّ على طرس الفيا في سطورها
يعبر عن فرط الحنين أنينها

و يُعرب عمّا في الضمير ضمورها
ترضّ الحصى شوقاً لمن سبّح الحصى
لديه وحياً بالسلام بعيرها
إلى خير مبعوث إلى خير أمة

إلى خير معبود دعاها بشيرها

ص(٥٨)

* *

وتحتفظ نجد بصورتها الشعرية في الشعر الأندلسي،
وخاصة في ظل الخلافة الأموية، فالشعر في مراحل الأولى

ظل معظمه تقليداً لشعر المشاركة، ومع أن بعض شعراء
الأندلس حاولوا الاستغناء عن صورة نجد بصورة الأندلس
في مجد حكامها وجمال طبيعتها كالشاعر "ابن هانيئ
الأندلسي" إذ يمدح الخليفة، حيث أقام فيه مجداً، وعرب
لسان قومها، وأقام أركان الحكم العربي الإسلامي فيها :
تؤم أمير المؤمنين طوالاً

عليها طلوع الشمس يقدمها السعد

* *

وتمر صورة نجد في شعر "ابن زيدون" مروراً عابراً وهو
عاشق الجمال وبلبل الحب . أما الشاعر "ابن رشيق القيرواني"
فيمثل صورة نجد في غنائه وشرابه، ويفتخر الشاعر
"الأعمى التّطيلي" بأبائه القحطانيين في نجد والحجاز الذين
انطلقوا بشيمهم وكرم نفوسهم وبأسهم .. يقول :
بها ليلٌ من قحطان ساروا بذكرهم
إلى مثلٍ في الجود والبأس سائرٍ

هم جنبوها بين بصرى وجلق
 ضوامر زجّوها و غيرَ ضوامرِ
 وهم زحموا أرض الحجاز بزحمة
 ببيض الظُّبا والرافعات الشواجر
 وهم ملؤوا نجداً شاماً و نجدة
 ورقة آداب و طيبَ عناصر
 ص(٩٥)

* *

ويجن الشاعر "ابن الزقاق البلنسي اللخمي" إلى مرابع
 الآباء، وقد زار المشرق، قيثمثل البعد المكاني الذي يفصله
 عن نجد موطن أرومته، فيقول :
 بنجد أنا خو العيس بعد هامة
 ويا بُعداً ما بيني وبينك يا نجد
 ويطيب له أن يشبه نفسه العاشقة بحميل بثينة ...:
 فلولا كنت بتصرني عنده
 ذكرتَ جميلاً بوادي القرى
 ص(١٠٧)

ويرى الشاعر "ابن خفاجة الأندلسي" صورة نجد ونهامة
في الارتفاع والانخفاض ليصف حركة يده وهي تعبت بجسد
المحبوبة وقد أخذ منهما الشراب، فيبتعد بذلك عن عفة هذه
الصورة كما جسدها شعراء نجد العذريون .. يقول :

تسافر كلنا راحتيّ بجسمه

فطوراً إلى خصرٍ وطوراً إلى زند

فتهبط من كشحيه كفيّ نهامة

وتصعد من خصريه أخرى إلى نجد

ص(١٢٠)

* *

ونلاحظ أن صورة نجد لدى متصوفة الأندلس لها طابع
رمزي، فالحب النجدي لدى الشاعر "أبي الحسن الششتري
الأندلسي" يتحول إلى توق للمطلق والاتحاد بالخالق،
ويصرح الشاعر أنه يعتمد إلى التمويه والرمز .. فيقول :

كم ذا تموّه بالشّعبيين والعلم

الأمر أوضَحُ من نارِ علِّ علم

ظَلَلَتْ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا
 وَعَنْ تَهَامَةٍ هَذَا فَعَلَ مَتَهُم
 فِي الْحَيِّ حَيِّ سَوَى لَيْلَى فَتَسْأَلُهُ
 عَنْهَا سَوَالُكَ وَهُمْ جَرٌّ لِلْعَدَمِ
 حَدَّثَ بِمَا شِئْتَ عَنْهَا فَهِيَ رَاضِيَةٌ
 بِالْحَالَتَيْنِ مَعَا الصَّمْتِ وَ الْكَلَمِ
 ص (١٧٧)

* *

وَيَتَّخِذُ الْحَنِينُ الصُّوفِيَّ لَدَى الشَّاعِرِ "الْعَفِيفِ التَّلَمْسَانِي"
 طَابَعاً فَلَسْفِيّاً يَنْدَمِجُ فِيهِ الْعَاشِقُ بِالْمَعْشُوقِ .. فَيَقُولُ :
 أَحْنَنَّ إِلَيْهَا وَ هِيَ قَلْبِي وَهَلْ تُرَى
 سِوَايَ أَخُو وَجَدَ يَحْنَنَّ لِقَلْبِهِ
 وَيُحْجِبُ طَرَفِي عَنْهُ إِذْ هُوَ نَاطِرِي
 فَمَا بُعْدُهُ إِلَّا لِإِفْرَاطِ قُرْبِهِ
 ص (١٨٧)

* *

ويرقى بشطحاته الصوفية، فتغدو صورة الحب النجدي
إشراقاً وتوقاً وذوباناً واتحاداً بالخالق مستخدماً مصطلحات
الصوفية :

وَأَسْأَلُ عَنْ قَلْبِي فَتَمَّ فَقْدُهُ
عَشِيَّة سَارِ الظَّاعِنُونَ بِمَهْجَتِي
مَنَازِلُ إِطْرَافِي وَمَغْنَى تَهْتَكِي
وَمَرْبَعُ إِيْنَاسِي وَ مَوْطَنُ خَلُوتِي
وَمَغْنَى بِهِ كَانَ الْحَبِيبُ مَنَادِمِي
وَمَنْ قَرَبَهُ رُوحِي وَرَاحِي وَرَاحَتِي
سَقَى اللَّهُ عَهْدًا فِيهِ عَهْدُ فَعْنَدِهِ
رَمَيْتُ إِلَى مَوْلَى الْخَلَاعَةِ خَلْعَتِي
فَرَحْتُ بِهِ بَلْ رَاحَ بِي وَتَرَدَّدْتُ
بِهِ حَالَتِي مَا بَيْنَ مَا حٍ وَ مَثَبٍ
ص(١٨٨)

* *

ويبدو أن الشاعر "أبا حيان التوحيدي" من الشعراء
الذين ابتعدوا من صورة نجد في التراث، فهو يتغزل بالنساء

التركيّات بدلاً من الحب النجدي .. وقد عاش في مصر
زمناً.. يقول :

من الترك لم يُربع بنجد وإنما
ربا في عرين الليث والليث حارسه
فلا وصل إلا من تَلَقَّتْ نظرة
تجاهره حيناً و حيناً تُخالسه

ص(٢٠٢)

* *

وفي قصيدة أخرى يقول :
من الترك لم ينشأ بنجد، وإنما
ربا في عرين الأسد تمسكه ضغطا
تباين منه الرّدْفُ والخصر خلقه
فذا مُحصِبٌ رَيّا وذا مجذبٌ قحطاً

ص(٢٠٤)

* *

ولعل الشاعر " ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي " والشاعر
"لسان الدين الخطيب" أكثر الشعراء التزاماً بصورة نجد

التقليدية، لكنها صورة مكررة تفتقر إلى التجديد وتعتمد كل معانيها على التراث، كذلك لدى بقية الشعراء في الأندلس والمغرب ممن جمدت قرائحهم عن تجديد هذه الصورة فاكتفوا بالاتباع والتقليد حتى الرتابة والسأم .

* *

وفي العهد العثماني، لم ينل الشعر حظوة لدى حكام الترك الذين لم يشجعوا الشعراء، ولا فتحوا أبوابهم لهم . تظل صورة نجد في شعرهم خجولة وفقيرة في ثنايا المديح الذي توجه إلى ممدوحين هامشين لم يكن مجد يذكر .

ويأخذ الحب النجدي لوناً دينياً لدى الشاعر " ابن معتوق الموسوي " في مدح الرسول (ص) .. يقول :

وعنّي قبل يارسولُ يمينه

و بُثَّ لديه ما أجنُّ من الوجدِ

عليه سلام الله ما حنَّ شيقُ

و أورت صبايات الغرام صبا نجد

ص(٣٣٥)

* *

وهو يتكئ على معاني الصورة النجدية، فيبرزها مكررة
بشوب جديد تثقله الصنعة والتكلف والمبالغة :

تدّين في الهوى العذري حتى
رأى عزّ المحبة بالهوانِ
أشدّ من الأسود إذا لقيها
و فيه عن المها فرقُ الجنان
رهينُ قوًى على خديه تجري
سوابقُ دمه جري الرهان
يمرّ على حصا الوادي فيكي
فينتشر العقيق على الجُمان

ص(٣٤٣)

* *

ويهبط الشعر الصوفي الذي يأخذ من تراث الحب
النجدي في ذلك العهد، فيتحول إلى مقطوعات للأناشيد
الدينية وقد تردّى نسجها التقليدي، كما في أناشيد
"عبد الغني النابلسي" الصوفية المغرقة في النثرية .

تَجَلَّى وجهه محبوبي و هذا كل مطلوبي
 فيا نار العدا ذوبي بعيد عنك مشروبي
 و لا نَجِدْ ولا أبرق سوى الأبريق والكوب

ص(٣٥٥)

* *

وينحدر المديح إلى مقطوعات ضعيفة النسج في
 المبالغات، وإن كانت خفيفة الإيقاع رقيقة الموسيقى، كما
 نعثر عليها لدى الشاعر "محمد جواد البغدادي" فهو يفضل
 صورة بغداد على صورة نجد، وقد فاتته أنه حين تخلّى عن
 الصورة النجدية في شعره فَقَدَ أصالته الشعرية وأضاع
 وهجها وتألّفها وصدقها .

ويرى بعض الشعراء من علماء الدين، أن يتجنبوا صورة
 نجد وما أوحته للشعراء من حب دنيوي، ويرون فيها
 انشغلاً عن الدين بالأمر الدنيوية .

وتغدو الصورة النجدية في الحب تلاعباً لفظياً وعبثاً
 يتكرر في كلماته حرف أو حرفان في تصنع يذهب بالعاطفة
 والشعور .

ومع طلائع عصر النهضة لم تغب صورة نجد من الشعر الذي كان إحياء تراث السلف، ويقلّد شعراء هذه المرحلة معاني السابقين وينهلون من معين أعلامه الكبار في العصور السابقة، ورائدهم في ذلك قراءة التراث الشعري الذي أسهمت الطباعة في نشره، يشارك في الحنين إلى نجد الشاعر الكردي الأصل أو النصراني المذهب . وكأن "نجد" القاسم المشترك الذي يؤلف بين القلوب وتهفو إليه الأفئدة . فالشيخ "ناصر اليازجي" يرسم خلال حنينه إلى نجد شوقه إلى المحبوبة التقليدية .

ويُعد الشاعر "محمود سامي البارودي" باعث الشعر العربي من مرقده في عصر النهضة لالتزامه منهج الشعراء الأعلام في العصر العباسي وأسلوبهم ومعانيهم، فبدأ شديد التعلق بصورة نجد في غزله :

بأيّ غزال في الخدور هميمُ

وغزلان نجد ما هن حميمُ

يَقْدُنْ زَمَامَ النفس وهي أَيْبَةٌ

ويخدعن لبَّ المرءِ وهو حكيم

ص(٥١٢)

* *

ونلاحظ غياب صورة نجد مع الشعر الحديث، ونمو
فردية الشاعر، وتحلله من الموروث حين تحلل من قيم
الجماعة، ولم يتغنَّ إلا بمواجده قلبه، ولا يشكو إلا حرمانه
الذاتي، لقد أضاع الطريق إلى نجد التي كانت منهجاً للانتماء
والهوية، وسفراً للقيم الاجتماعية والروحية النبيلة يداوي بها
الشاعر عزلته وتفرده، فتحميه من مرض العصر .

لقد بهتت صورة نجد مع الزمن بطابعها البدوي والمدني،
وأساء بعض الشعراء فهمها حين ثاروا عليها، لأنهم اندفعوا
إلى تحقيق رغباتهم الفردية في التحرر منها والثورة على بعدها
الإنساني والاجتماعي والخلقي، وما كانت نجد إلا رمزاً
لوطن وانتماءً وتعبيراً عن مكارم الأخلاق والشهامة،
وترسيخاً لقيم الحق والخير والجمال .

المحتوى

- ١- في البدء كلمة .. ٧
- ٢- الحنين إلى الرياض - العشق الأول ٢٣
- ٣- حذاء الصحراء عند الشاعر خالد الحنين ٤٣
- ٤- عشيات الحمى عند الشاعر خالد الحنين ٦١
- ٥- تجليات الغربة والحنين في "شظايا العمر" ٧٩
- ٦- "نجد" ومفاته الشعرية ١٠١
- ٧- "نجد" وأصداء مفاته في الشعر العربي - ١ - ١٢١
- ٨- صورة "نجد" في الشعر العباسي والفاطمي ١٧١
- والأيوبي - ٢ -
- ٩- صورة "نجد" في الشعر الأندلسي والعثماني ١٩٩
- وعصر النهضة - ٣ -

